المختار

(اسم ونصيب)

اسم الكتـــاب: المختار (اسم ونصيب)
تـأليـــــــف: حسن محمد عبد الكريم
القـطـــــع: 14*20
تدقيق لغوي: هالة الأشقر
سنـة النشـر: 2024
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 31952 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 585 - 5

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

المختـار

اسم ونصيب

رواية

حسن محمد عبد الكريم

إهداء

إهداء إلى كل تاء

إهداء إلى جميع النساء

أمي التي حملتني وسهرت على راحتي

زوجتي التي احتوتني وتحملت هدوئي وعصبيتي

ماما سوزان التي جعلتني أقرأ بقولها: "القراءة للجميع"

الدكتورة شاهندة التي آمنت بموهبتي ودعمتني وشجعتني،

أم الأدباء بحق، ولن أوفيها حقها ببضع كلمات.

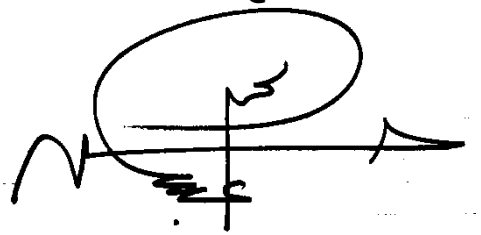

المقدمة

لكل منا لحظات مصيرية فارقة في حياتنا، يقرر فيها الفرد أن يتغير كليًا، عندما يمل المرء من تلك الحياة النمطية وذلك التكرار القاتل المرير. وقتها يصبح الهروب والفرار هو الحل، يلجأ وقتها إلى العزلة، ولكن هل يكون بالفعل هذا التغيير هو طوق النجاة أم أنه سيصبح سجنًا وطوقًا حول العنق؟

(الوحدة والخلوة شيئان مختلفان، فعندما تكون وحيدًا، سيكون من السهل أن تخدع نفسك، ويُخيَّل إليك أنك تسير على الطريق القويم.

أما الخلوة فهي الأفضل لنا؛ لأنها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنك وحيد. ولكن في نهاية الأمر، من الأفضل لك أن تبحث عن رفيق، شخص يكون بمثابة مرآة لك، وتذكّر جيدًا أنك لا تستطيع أن ترى نفسك حقًا إلا من قلب شخص آخر). قواعد العشق الأربعون

وهنا يتساءل الكثير من الأشخاص، الاجتماعيون منهم خاصة:

ماذا يوجد في الخلوة سوى العزلة؟

وماذا في الفراغ سوى الفراغ؟
وماذا في الصمت إلا السكوت وانعدام الكلام؟

وأنا قضيت من عمري الكثير منطويًا وحيدًا،
كانت الكتب والأقلام والأوراق هي الملاذ الآمن والصديق المخلص.
ولكن...

الوحدة

دقات الساعة تعلن تمام الحادية عشرة مساء، ذلك الموعد المحبب لي للقاء كوكب الشرق السيدة أم كلثوم. توجهتُ إلى المذياع على مهلٍ، وأدرت مفتاح التشغيل، وما هي إلا ثوانٍ وبدأت الموسيقى الهادئة.

جلستُ على أريكتي، وتناولت فنجان القهوة الذي أعددت، واسترخيتُ بجسدي أستمع لمعشوقتي كوكب الشرق، وهي تشدو بإحدى روائعها من زمن الفن الجميل:

سهران لوحدي

أناجي طيفك الساري

سارح بوجدي

ودمعي ع الخدود جاري

نام الوجود من حواليا

وأنا سهرت في دنيايا

أشوف خيالك بعينيا

وأسمع كلامك ويايا

أتصور حالي.. أيام وليالي.. مرت علي بالي.

تلك الكلمات التي صاغها الشاعر الكبير "أحمد رامي"، كأنه واصفٌ ما أشعر به.

اليوم أتممت عامي الخامس والخمسين، ووجدتني وحيدًا. حتى ذكرى يوم مولدي لم أشعر به إلا عندما نظرت إلى الروزنامة المعلقة.

زوجتي تعمل، وتعود من عملها لتمر على ابنتيها الاثنتين في منازلهما، وربما في بعض الأيام تقرر المبيت عند إحداهما، فأجد نفسي يوميًا في فراغ تام وروتين ممل.

أقوم بتحضير الطعام وأقداح القهوة المعتادة بنفسي، ثم أجلس أمام التلفاز في يأس أبدل قنواته لأشاهد ذلك العالم الغريب حتى المساء.

فأستمع لمعشوقتي "الست أم كلثوم" في حفلتها اليومية على إذاعة الأغاني، ويغلبني النعاس بعدها.

حتى أحلامي لم تعد دقيقة ولا واضحة المعالم كما كانت قديمًا، بل هي عبارة عن لقطات باهتة ليس لها أي معنى ولا أتذكرها حينما أستيقظ في الصباح.

أصبحت متقلب المزاج، سريع الغضب في معظم الأوقات، وفي أوقات أخرى لا أبالي لأي شيء من حولي، وكأنني مومياء من مومياوات المصريين القدماء أو تمثال من تماثيل الإغريق.

يمكنني أن أغفو وأغط في النوم وأنا وسط حشد كبير من الناس في محافل صاخبة.

ويمكنني أن أظل مستيقظًا ليومين متتاليين دون أن يغمض لي جفن. يمكنني أن أتذكر مواقف حدثت منذ عشرات السنين بكل تفاصيلها، وأتعجب كيف أتذكرها ولا يذكرها الآخرون.

وفي بعض الأوقات الأخرى أنسى من أكون ومن يكون هؤلاء الفتيات الصغيرات اللاتي يدعونني "جدي".

أصبحت عبئًا على الجميع، وإن لم يظهر عليهم ما يدل على ذلك. الكل يبتسمون عندما يلاقونني، ولكنني أشعر بأنهم يلعنونني عندما أدير ظهري إليهم.

لذلك، في تلك الليلة التي أتممت فيها الخامسة والخمسين عامًا، قررت العزلة.

كنت أمتلك غرفة صغيرة قديمًا عندما كنت شابًا في الجامعة، منذ أن جئت إلى القاهرة للدراسة، ولم يكن أحد يعلم عن تلك

الغرفة المغلقة شيئًا؛ لا زوجتي ولا بناتي، حتى أنا كنت قد نسيتها.

إنها غرفة مثالية لرجل وحيد يريد أن يعيش ما تبقى له من العمر في عزلة دون أن يُرهق من حوله.

غرفة بها دورة مياه خاصة، ولها شرفة تطل على منظر رائع جدًا، فهي تقع أعلى هضبة المقطم، فترى القاهرة كلها.

وترى إشراق الشمس كل صباح في مشهد مهيب، وبالمساء ترى أضواء تلك المدينة الصاخبة وأنت تجلس في منتهى الهدوء.

بداخلها سرير يكفي لفرد واحد، ومقعدان وثيران مصنوعان من الجلد كانا معروضين في مزاد لشركة أفلست قديمًا. وهناك أيضًا كنبة وجدتها مع بائع الروبابيكيا فأعجبتني واشتريتها.

وهناك جهاز تلفاز صغير ومذياع.

أخذت ملابسي فقط، وتركت لزوجتي كل ما أملك من مال إلا قليلًا. وكنت قد أعددت مسبقًا لذلك اليوم، فوضعت قدرًا كبيرًا من أموالي التي كنت أدخرها كوديعة باسم زوجتي، غير أني تركت لي البطاقة الخاصة بصرف معاشي الشهري.

أخذت القليل من المال كما ذكرت، وعزمت الأمر على الرحيل.

وفي طريقي إلى غرفتي الجديدة القديمة، توجهت إلى محل

العطارة الشهير في منطقة الأزهر بالعتبة، وابتعت كمية كبيرة من البن المطحون جيدًا مخلوطًا بحبة البركة.

ولا أنكر كيف تعجب ذلك البائع الذي قام بطحن تلك الكمية، سائلًا أكثر من مرة:

"هل أنت تاجر جديد؟"

فابتسمت له دون أن أجيبه. وعندما أعاد السؤال ثلاث مرات أخرى أجبته:

"لا، لكنني عاشق."

وبعدما أخذت تلك الكمية التي تجاوزت العشرين كيلوجرامًا من البن، ابتعت من محل مجاور سبرتاية وكنكة نحاسية وبعض الفناجين الخزف.

ومررت بمنطقة الفجالة وابتعت أقلامًا كثيرة متعددة الألوان، وكثيرًا من دفاتر المحاضرات والأوراق الفولسكاب المسطرة.

أخذت سيارة أجرة أوصلتني إلى عنواني الجديد بالمقطم، وهنا أخذت حياتي منعطفًا جديدًا لا أدري ما هي نهايته.

في الأيام الأولى كنت كثير النعاس والنوم، وتلفازي يعمل ليلًا ونهارًا مع ذلك المذياع.

حاولت أن أنظم أفكاري لكي أكتب شيئًا قيمًا ومفيدًا، ولكنني لم أستطع، على الرغم من أنني حاولت جاهدًا مرارًا وتكرارًا، ولكنني كنت مشتت الذهن. وظللت ممسكًا بالأقلام أخط خطوطًا عشوائية بهدف إقامة علاقة بيني وبين الأقلام والأفكار.

لم أعد أشعر بالزمن، لقد مر وقت ليس بالقليل وأنا على هذه الحالة. لم أخرج من غرفتي إلا مرة واحدة يوميًا لأبتاع الفطور والجرائد. فقد كنت قليل الأكل، قليل الكلام، كثير القراءة والاطلاع، غزيرًا في احتساء القهوة.

ومرة أخرى قررت الخروج من غرفتي والتنزه!

تنقلت كثيرًا بين وسائل المواصلات، كأنني لم أستقل إياها يومًا ما. وانتهى بي المطاف في أحد خطوط مترو الأنفاق.

كنت تاركًا قدمي تسيران كما يحلو لهما، وشعرت بأن شيئًا ما يدفعني لاستقلال تلك الوسيلة.

جلست قرابة الساعة ذهابًا، والساعة في العودة، في نفس القطار، ولم أجد جديدًا في ذلك.

فعدت أدراجي إلى غرفتي وجلست مستمعًا لأنغام موسيقار الأجيال وصوت سيدة الغناء العربي بتلك الرائعة "أمل حياتي".

دونت كل ما رأيته في ذلك اليوم بأدق التفاصيل.

في اليوم التالي، وفي الوقت ذاته، كررت ما فعلته في نفس القطار ونفس الرحلة ذهابًا وإيابًا.

ظللت هكذا لعدة أيام، أدون كل ما أراه يوميًا.

وجدت متعة في ذلك، ولم أعلم ما هو الممتع فيه، ولكنني لاحظت تكرار بعض الوجوه يوميًا في هذه الرحلة، فإما أن يكون موظفًا أنهى عمله أو طلابًا انتهت محاضراتهم.

كنت أراقب الجميع، وخصوصًا من أراهم يوميًا.

الشك

ولكنني لمحت ذلك الشاب الغريب الذي يرتدي "سويت شيرت" ومنظارًا شمسيًا يخفي به وجهه، ويجلس منطويًا، يتحاشى الناس من حوله، وبين الحين والآخر يخرج من جيبه جهاز الهاتف المحمول الذي بدأ ينتشر في الآونة الأخيرة.

يا لها من تكنولوجيا غريبة! أن تحمل في جيب معطفك جهازًا تعرف منه الوقت والأخبار، وتحدث به أناسًا في أماكن بعيدة وأنت تتحرك بحرية، وتكتب لهم وتقرأ ما يكتبونه. جهاز تستعيض به عن عدة أجهزة وأشياء كثيرة.

كنا قديمًا نرتدي الساعات ذات المؤشرات العقارب، ثم أصبحت ساعات رقمية، والآن أصبح هناك جهاز الهاتف المحمول. كنا نعرف الأخبار من الجرائد بعد حدوثها بسويعات، أما الآن، في التوّ واللحظة تعرف ما سيحدث، وربما قبل حدوثه. كنا نجلس بجوار جهاز التليفون انتظارًا لمكالمة من عزيز، أما الآن، فبضغطة واحدة تحدث من تشاء وقتما تشاء وفي أي مكان تكون، وتكتب له وتقرأ كتاباته. فلنعد إلى صديقنا هذا! فلقد أثار ريبتي وشكوكي، على الرغم من أنه لم

يكن ذا مظهر مريب، ولكنني توجست منه الخيفة. لقد كان مثاليًا أكثر من اللازم. قررت أن أراقبه مراقبة مكثفة، ولكنني لم أجد ما يثير بداخلي الشك تجاهه. قررت أن أعرف موعد عودة ذلك الشاب من عمله، ومتى يستقل القطار في المساء. وظللت أنتظره يوميًا في محطته التي ينهي بها رحلته اليومية، ولكنني لم أكن أراه يعود ثانية.

كان يوميًا يستقل القطار من المحطة الأولى بـ"حلوان" وينهي رحلته في محطة "أنور السادات" بالتحرير، أما العودة، فلا يعود. كنت أشتاط غيظًا وغضبًا من هذا الغامض ومن أفعاله المثالية، وكنت أود أن أذهب إليه وأكيل له اللكمات حتى يقر ويعترف بما أريد أن أعرفه.

جلست بجواره يومًا، ولاحظت أنه ارتبك قليلًا وابتعد. تعمدت التقرب منه، واختلست بضع نظرات فاحصة، ولكنني لم أر وجهه جيدًا، ولاحظت أنه لم يستخرج جهازه المحمول طوال فترة جلوسي بقربه. ظللت هكذا لأيام، أتقرب منه فترات، وأراقبه من بعيد لفترات، حتى سنحت لي فرصة مثالية للانتقام منه.

كان الشاب ممسكًا بجهازه المحمول ينظر إليه، حتى اقترب منه رجل يسأله عن الوقت، فارتبك صديقنا وأسرع بوضع جهازه في جيبه، ولكنه لم يحسن إدخال الجهاز في جيبه جيدًا، فكان على وشك السقوط. أمعنت المراقبة جيدًا حتى حانت محطة نزوله، ووقف الشاب يستعد لخروجه من القطار، فسقط هاتفه بالفعل، ولم يشعر به حينها.

توقف القطار وخرج الشاب مسرعًا كعادته، وهو لا يعلم أن هاتفه سقط من جيبه. أما أنا، فجاهدت الزحام حتى وصلت إلى المكان الذي سقط به الهاتف، وجاهدت أكثر عندما انحنيت لالتقاط ذلك الجهاز. تبا لأمراض ذلك العمر! شيخوخة ملازمة، غضروف، تآكل في العظام، وفقدان ذاكرة لحظي.

ساعدني اثنان من الشباب كانا يقفان بجواري لأستعيد انتصاب عمودي الفقري وأقف من جديد، ولكن هذه المرة كنت أمتلك ذلك الجهاز المرعب. كنت في قمة السعادة، كأنني قد ربحت المليون دولار، أو كأنني رافقت "مارلين مونرو"، ولكن لسبب ما كنت أرتعب وأتصبب عرقًا وأنا أحمل ذلك الهاتف اللعين.

ولأول مرة منذ فترة طويلة، أقرر أن أقطع تلك الرحلة اليومية التي اعتدت عليها في ذلك القطار، وأن أعود لغرفتي سريعًا. مع كل خطوة كنت أخطوها، كنت أتلفت حولي معتقدًا أن ذلك الشاب يتتبعني، أو أنه قد رآني، أو أن أحدًا ممن يعملون معه قد لاحظ ما فعلته. فلقد كان إحساسي دائمًا أنه مراقب أو ما شابه ذلك.

ظللت هكذا حتى دخلت نطاق سكني، تلك المنطقة المعزولة شبه الصحراوية، وبعد زمن بدا كأنه زمن سحيق وصلت لغرفتي، وكنت كلما اقتربت، أحسست أنهم على وشك الإيقاع بي. دخلت غرفتي وأغلقتها خلفي بإحكام شديد، وارتميت على سريري الوثير المهلهل. ارتعدت وترتعد كل ذرة في جسدي. كنت أتصبب عرقًا بغزارة، فتمددت وغفوت دون أن أشعر.

حلمت، ولأول مرة منذ أعوام، وكان حلمًا واضحًا. رأيت ذلك الشاب في الحلم، وهو يتوعدني بحدة حتى اشتبكنا، وكال لي بضع لكمات وركلات عنيفة جعلتني أستيقظ وأنا أتصبب عرقًا غزيرًا. كنت أشعر بآثار لكماته وركلاته على جسدي الهزيل.

أفقت من تأثير ذلك الحلم الذي كان أقرب إلى الحقيقة، ووجدت أنني قد غفوت لمدة تخطت نصف يوم. وبعد أن

أخذت القدر الكافي من الاستحمام، والذي لم يرضني بعد، كنت كلما انتهيت أشعر وكأنني ما زلت في حاجة لمزيد من المياه. لعلني قد أصبت بمرض الوسواس الدموي الذي يصيب كل مجرمي الحروب والقتلة والسفاحين.

كانت الشمس توشك على الغروب، والمشهد أقرب إلى السحر. فأنا أرى من شرفتي الصغيرة مساحة هائلة من المباني القديمة البعيدة التي اصطبغت باللون الأحمر الناري، لون الشمس التي تختبئ من نهارها، وتترك تلك المباني تستعد لإنارة عالمي الخاص بأضوائها.

كنت في حالة استرخاء لا أقوى على فعل أي شيء. حتى المذياع أو فنجان قهوتي، لم أكن على استعداد أو مقدرة على الاقتراب منهما أو حتى مجرد التفكير.

بعد انقضاء ما يقرب من اليوم الكامل، لم أكن قد خرجت في هذا اليوم كما اعتدت. تذكرت فجأة ذلك الجهاز المريب. وبعد أن كان ذهني في حالة من الاسترخاء والصفاء التام، انقبضت كل عضلاتي، وارتجفت كل أعضاء جسدي بمجرد تذكر ذلك الهاتف وذلك المأزق.

أمسكت الهاتف وتفحصته جيدًا بقلق واضح، كأنه قنبلة توشك على الانفجار في وجهي. كنت لا أعلم كيفية التعامل مع هذه التكنولوجيا الحديثة، ولكنني لست جاهلًا أيضًا. فكان التعامل بسيطًا وغير معقد لدرجة سمحت لي أن أفتح الهاتف وأدخل إلى محتوياته وملفاته.

كانت هناك بعض الصور الفوتوغرافية لشاب وسيم مبتسم دائمًا، وهناك صور أخرى لشاب آخر يخفي وجهه دائمًا بجزء من ملابسه يضعه على رأسه. لم أتبين ملامح وجه الشاب الخفي هذا، على الرغم من وجود تلك الصور الفوتوغرافية الكثيرة، مما زاد في نفسي ريبة أكثر، وزادت تساؤلاتي عن ماهية ذلك الشاب وما خلفه.

كان الهاتف مبرمجًا باللغة الإنجليزية، وأنا للأسف لا أعلم عن تلك اللغة إلا القليل جدًا، فأنا لم أتحدث إلا اللغة المصرية – وأقصد باللغة المصرية لغة أهل العامية البسطاء – وليست اللغة العربية الفصحى.

حاولت أن أتفحص الهاتف جيدًا، فوجدت به ذاكرة للأسماء، وكانت باللغة الإنجليزية أيضًا، ولاحظت وجود أسماء أجنبية بها، وكانت الأسماء تلك يسبقها الأحرف التعريفية مثل (Mr،

Dr)، وبالطبع فهمت أنهما يرمزان إلى ألقاب "دكتور، أستاذ، مستر".

دلفت إلى سجل المكالمات، ولم أجد أي مكالمات مسبقة قد أجريت، أما الرسائل فكان هناك الكثير منها، وكلها باللغة الإنجليزية.

لم أفهم مغزى تلك الرسائل الصادرة والواردة، ولكنني لاحظت وجود بعض المصطلحات التي دائمًا ما توضع بين قوسين لأهميتها.

زادت حيرتي، وتوجست الخيفة من تلك الرسائل الغامضة، التي لم أكن أعرف فحواها بعد، ولكنني عزمت – كأي إنسان غيور على وطنه – أنني لا بد من معرفة تلك المحدثات.

فأنا من النوع الذي يبغض تلك اللغات بشدة، حتى في الأفلام الأجنبية التي أشاهدها فقط من باب التسلية، كنت أبغض لغتهم الإنجليزية هذه، وكنت أشعر بفخر حينما أرى الترجمة باللغة العربية أسفل الشاشة.

تركت الهاتف، وحدثت نفسي بأن ذلك الشاب لا بد وأنه قد لاحظ فقدان هاتفه، وسيحاول البحث عنه، ولربما سيحاول الاتصال به آجلًا أم عاجلًا لاسترداده.

وقتها سيكون الانتقام، وقررت الانتظار حتى ذلك الحين.

لربما كان ذلك الشاب جاسوسًا لإحدى الدول المعادية لوطننا الحبيب، وأخذتني الحماسة فقررت أن أقوم بالإبلاغ عنه حينما يتصل بي لاسترداد هاتفه.

رسائل

وبعد انقضاء أكثر من نصف الليلة، وقاربنا على بزوغ فجر اليوم التالي، أطلق ذلك الهاتف رنينًا هادئًا رتيبًا ذا صوت منخفض.

سارعت لكي أرى من المتصل، ولكنه لم يكن اتصالًا، بل كانت هناك رسالة جديدة، وفتحتها، وكانت كسابق الرسائل باللغة الإنجليزية، والمرسل اسم أجنبي أيضًا يسبقه الحرفان Dr.

دارت في رأسي تساؤلات عديدة عن طبيعة تلك الرسائل، وماهية هذه الأسماء الأجنبية وتلك الرموز.

هل Dr. هذه ترمز إلى دكتور (طبيب)، أم هو رمز بغرض التمويه؟

وهنا بزغت في رأسي فكرة حسبت أنها رائعة، وهي أن أشتري قاموسًا للترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وأحاول ترجمة تلك الرسائل.

وفي صباح اليوم التالي، توجهت إلى إحدى المكتبات الكبرى المجاورة، واشتريت ذلك القاموس وكتابًا بعنوان "كيف تتعلم الإنجليزية".

وبدأت في ترجمة الرسائل.

وكانت أول الرسائل التي نجحت في ترجمتها:

وأعتذر لكم في سرد تلك الرسائل باللغة العربية، فأنا أجهل قواعد اللغة الإنجليزية، ولكنني حاولت قدر المستطاع، وفي حدود الإمكانيات المتاحة، أن أنظم الكلمات للحصول على جمل مفيدة ومعلومات ذات معنى.

الرسالة الأولى كانت مرسلة من ذلك الشاب، والمرسل إليه باسم دكتور هاريس، ونصها كالآتي:

"عزيزي الدكتور هاريس،

تحية طيبة وبعد،

أحدثك بشأن تلك التقارير والصور التي أرسلتها لسيادتكم، وأتمنى أن تكون هناك فرصة لمعالجة تلك الأمور الوارد ذكرها سابقًا.

أنتظر من سيادتك الرد، وأنا على أتم استعداد لتوضيح أي استفسار بخصوص ذلك."

لم أستوعب شيئًا بعد ترجمة تلك الرسالة. فمن يكون هذا الدكتور هاريس؟ وماذا تحتوي تلك التقارير والصور التي

أرسلها له ذلك الشاب؟ وماذا تكون تلك الاستفسارات الممكن أن يطلبها ذلك الرجل؟

زادت الحيرة وزاد الشك في نفسي، ولكني اكتشفت أن المساء قد أقبل، وأنني قد أرهقت جدًا بسبب تلك الترجمة التي أخذت وقتًا ليس بالقليل، فالبحث عن كلمات في قاموس للغة لا تعرفها هو شيء مرهق للغاية.

كان ذلك اليوم هو الأول بعد أن كنت قد بدأت رحلاتي اليومية في قطارات مترو الأنفاق.

وجدت نفسي لم أتغذَ منذ الصباح، ولم أحتسِ قهوتي المعتادة، حتى أنني لم أقم بتشغيل جهازي التلفاز أو المذياع.

نظرت إلى ساعتي ووجدتها قاربت الحادية عشرة مساءً. نعم، إنه موعدي المعتاد مع سيدة الغناء العربي "أم كلثوم". أدرت جهاز المذياع على إذاعة الأغاني، وجلست أمام السبرتاية أسابق الزمن لتحضير قهوتي قبل بدء الحفلة.

وها هي دقات خشبة المسرح، والصمت يخيم على الكون من حولي. صببت القهوة في فنجانين كما اعتدت، وعلا صوت التصفيق الحار من الجمهور الحاضر في دار الأوبرا المصرية.

"يا ليتني كنت معهم في تلك اللحظة."

صوت الأستاذ جلال معوض وهو يقدم حفل كوكب الشرق يلهب الأسماع، ويجعلك تتلهف لفتح الستار. يصفق الجمهور مرة أخرى تحية لها وللفرقة، وتبدأ الفرقة بالعزف.

كنت جالسًا في شرفتي أنظر إلى سماء القاهرة، وأمدد قدمي على مقعد آخر، وأحتسي القهوة برشفات متتابعة. وتبدأ الست تطربني وتسألني بتلك الكلمات التي صاغها الشاعر الكبير عبد الفتاح مصطفى:

لسه فاكر ... قلبي يديلك أمان؟

ولا فاكر... كلمة هتعيد اللي كان؟

ولا نظرة... توصل الشوق والحنان؟

لسه فاكر؟ ... كان زمان كان زمان.

نعم، ما زلت أتذكر يا سيدتي. استرجعت طفولتي وشبابي وهرمي في تلك اللحظة. شريط من اللقطات يمر أمامي: كيف تفوقت في المدرسة الثانوية في قريتي، وكيف نزحت إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة، وكيف سكنت في هذه الغرفة، وكيف تخرجت والتحقت بعمل في أحد المصانع.

وكيف قابلت زوجتي وأحببتها، وكيف كانت فرحتي العارمة بطفلتي الأولى، وكيف كانت إصابتي في العمل التي أقعدتني

وأحالتني إلى المعاش، وكدت بسببها أن ألقى حتفي. راح ضحيتها الكثير من الأرواح، وكانت الإصابات متعددة.

كيفيات كثيرة جالت برأسي.

ولكن مشهد تلك الحادثة كان بتفاصيله الدقيقة: انفجار هائل أسفر عن حرائق كثيرة في مدرسة مجاورة للمصنع، وقد طالت النيران جزءًا كبيرًا من المصنع.

كانت هناك مواقف بطولية في هذه الحادثة التي مر عليها ما يقرب من خمس سنوات.

لماذا يا ست؟! لماذا تذكرينني بتلك الأحداث؟!

لماذا تكررين سؤالك: "لسه فاكر؟"

انتهت سيدة الغناء من إحدى روائعها الغنائية، وتركتني في شعور مزيج بين الغضب والنشوة.

اعتدت إغلاق المذياع بعد حفلة الست، واتجهت إلى فراشي، ومشاعر الحزن بداخلي على تذكري لتلك الأحداث، وغفوت.

استيقظت على أشعة الشمس اللاسعة تلفح وجنتي لأنني قد نسيت أن أغلق باب الشرفة قبل نومي بالأمس. تسللت الأشعة إلى غرفتي حينما بزغت الشمس. اغتسلت سريعًا وخرجت لأبتاع الفطور والجرائد، وأسرعت عائدًا إلى غرفتي. وبعد

انتهائي من وجبة الإفطار، شرعت في تحضير كوب من الشاي وجلست أتفحص الجرائد.

ثم بعد ذلك أمسكت الهاتف وقاموس الترجمة مرة أخرى، وبدأت في ترجمة ثاني الرسائل.

وكانت ردًا من دكتور "هاريس"، ونصها كما تمت ترجمتها على قدر استطاعتي كالآتي:

"عزيزي،

إن إصابة صاحب هذه التقارير والصور الفوتوغرافية سيئة جدًا، وإنها حالة حرجة للغاية. لا بد من الحضور الفوري إلينا للقيام ببعض الفحوصات والتحاليل الدقيقة للوقوف على أبعاد تلك الحالة بشكل دقيق وصحيح.

حدد لنا موعدًا لحضورك لترتيب ذلك."

انتهت الرسالة بهذه الكلمات، وبدأت أرتاب بشكل مختلف، وأتساءل: "من هو ذلك المصاب؟ وما هي تلك الإصابة؟"

ولكني حدثت نفسي بأنه ربما تكون تلك المفردات عبارة عن لغة متفق عليها لإبعاد الشك عنهما. ولكن كان هناك شيء يدفعني لمتابعة ومواصلة ترجمة باقي الرسائل، فكانت الرسالة

الثالثة مرسلة من ذلك الشاب إلى دكتور "هاريس"، ونصها كالآتي:

"عزيزي دكتور هاريس،

أشكر سيادتكم شكرًا جزيلًا لاهتمامكم بالرد، ولكنني أعتذر لعدم استطاعتي الحضور إليكم في الوقت الراهن، وإن كنت أتمنى التوضيح أكثر عن الحالة ومعرفة الاحتمالات القائمة والمطروحة لتلك الحالة.

وشكرًا."

أغلقت الهاتف وأنا متعب ومرهق جسديًا وذهنيًا وفكريًا. وكانت إصابتي القديمة في فقرات الظهر تمنعني من الجلوس كثيرًا، وتقيد حركتي في بعض الأحيان.

تمددت على فراشي وشرعت أكتب بعض الملاحظات، ولا سيما كتابة ترجمة تلك الرسائل، ومحاولة استخراج ما يفيد من مضمونها.

كانت هناك عدة احتمالات لتلك المحادثات:

أولها: أن يكون ذلك الشاب صاحب إصابة أو مرض ما، ويراسل طبيبه للوقوف على حالة مرضه كما تنص الرسائل.

وثانيها: أن يكون جاسوسًا يتخابر مع جهة مخابراتية معادية، وتلك المصطلحات ما هي إلا شفرة متفق عليها مسبقًا.

أقبل الليل سريعًا، وحانت لحظات الاسترخاء واسترجاع الذكريات.

فناجين القهوة المتراصة بجواري، والمذياع يتردد صداه في أرجاء الغرفة، معلنًا موعد الحفلة اليومية لسيدة الغناء العربي السيدة "أم كلثوم"، واليوم تشدو لي أغنية "فكروني".

شعرت بأن الست ترسل لي رسائل خاصة. فالأمس القريب تسألني "لسه فاكر"، والليلة تجيب بدلًا مني بـ"فكروني".

ماذا تريدين يا كوكب الشرق؟

أضواء القاهرة الساحرة ذكرتني بتلك اللحظات القديمة، حينما كنت صغيرًا في البلد، وفي ليالي شهر رمضان الكريم، كنا نقوم بإشعال "سلك المواعين"، ونطلق أذرعنا في الهواء بقوة لتتناثر شظايا السلك المشتعل في الهواء وعلى الأرض.

كان نفس المشهد أمامي:

أضواء ذهبية متناثرة في أرضية واسعة سوداء.

انتهت السيدة "أم كلثوم" من هذه السهرة، وانتهت معها ذكريات الطفولة السعيدة، وكنت أستعد للنوم، وأنا أمني نفسي بنوم هادئ مريح. أغلقت الشرفة لكي لا تلسعني أشعة الشمس في الصباح مرة أخرى.

بطل الظل

مددت جسدي على الفراش وأغمضت عيني، وفجأة جال بخاطري شيء، فاعتدلت منتبهًا.

فأنا لم أرَ وجه ذلك الشاب مطلقًا حتى الآن، ولم أعرف اسمه حتى، ورغم ذلك كنت أشعر بشيء يجذبني تجاهه دائمًا.

لماذا هو؟ ولماذا أنا؟

ولأول مرة شعرت بشيء من العطف على ذلك الشاب، فقررت أن أضع حلًا نهائيًا لتلك المعضلة، وقررت متابعة ترجمة باقي الرسائل لعلني أصل لأي شيء، حتى ولو على حساب صحتي.

الهاتف، القاموس، الأوراق، الأقلام، فناجين القهوة...

كل شيء جاهز ينتظرني، وما علي إلا أن أبدأ.

الرسالة الرابعة مرسلة من الدكتور هاريس، وكان نصها كالآتي:

"عزيزي،

أسف أن أبلغك بأن تلك الحالة حرجة للغاية، فهي تندرج تحت إصابات الحروق من الدرجة الرابعة. وقد تسبب الحريق بضرر بالغ في بعض عظام الوجه، وأخشى أنه لا بد من تدخل

جراحي عاجل بأسرع وقت ممكن لتفادي حدوث أي انتكاسات للحالة. لذلك أعلمني بميعاد حضورك لأقوم بالتجهيزات اللازمة للبدء فور وصولك.

أتمنى لك الشفاء، وشكرًا."

سيطرت علي حالة من الذهول التام، وظللت أنتفض لفترة طويلة من هول ما عرفت في هذه الرسالة.

فذلك الشاب المسكين مصاب بحروق من الدرجة الرابعة – أنا لا أفهم في نوعية إصابات الحروق – ولكن من الواضح أن إصابته قوية وشديدة.

لاحظت أن تواريخ تلك المحادثات قديمة نوعًا ما، وقد مر عليها سنتان على الأكثر.

لا بد أن ذلك الشاب لم يستطع السفر للخارج للعلاج، وكان يعاني في كل ثانية منذ أن أصيب.

وأنا؟

وأنا الذي قد ظننت به شر الظنون، وذلك ما أحزنني كثيرًا...

وهنا انتبهت لشيء:

ذلك الشاب كان يخفي وجهه دائمًا عن أنظار الجميع.

للأسف، فإن مصابي الحروق في بلدنا يعاملون معاملة سيئة للغاية، وكأنهم مجرمون، وخاصة إذا كانت الحروق في وجوههم.

دائمًا ما ينظر إليهم بشيء من الخوف والاشمئزاز كأنهم عدوى أو فيروس.

حاولت تخيل ما حل بوجه ذلك الشاب، وكيف يكون وجهه، ولكنني كنت أخشى حتى التخيل.

لم أستطع النوم مطلقًا ولم أستطع استكمال ترجمة باقي الرسائل.

مرت الساعات الباقية كأنها سنوات طويلة الأمد، حتى حان ميعادي اليومي للذهاب في تلك الرحلة اليومية إلى قطار مترو الأنفاق.

أسرعت بالتوجه إلى محطة المترو تلك كما تعودت، وانتظرت حتى حانت اللحظة المرتقبة، ورأيت ذلك الشاب المسكين وهو يسير منكسِرًا، حزينًا، وحيدًا، يخشى الناس من حوله، ويخفي وجهه عن الأنظار.

ذهبت إليه واعترضت طريقه، فوقف خائفًا يحاول أن يتفاداني. ولكنني كنت أعترضه عن قصد وتعمد، ففهم أنني أقصده، فوقف مكانه ولكنه لم ينطق.

أخرجت له هاتفه الخاص ومددت إليه يدي، ولما رآه اشتعل حماسًا وكأن جسده دبّت فيه الروح من جديد. ولأول مرة أراه يرفع رأسه لينظر إليّ وهو يقول ببطء وحروف خشنة:

"ألف شكر لك يا سيدي."

وهنا رأيت وجهه، ولكنني لم أرَ أي حروق مطلقًا، ولم أرَ أيضًا وجهًا.

لقد كان وجهه هذا وجهًا تنكريًا، قناعًا من مادة ما بنفس لون البشرة.

حينها تذكرت ذلك الفيلم العربي القديم للفنان القدير الراحل عمر الحريري بعنوان أغلى من عينيه، عندما كان مصابًا بحروق في وجهه وكان يضع قناعًا يخفي به وجهه المصاب.

زادت لوعتي وأشفقت كثيرًا على ذلك الشاب، مما جعلني أعتذر له بشدة. ولم أتمالك نفسي، فاعترفت له بفعلتي وبما ظننته سابقًا، ولكنه كان يحاول التملص مني والفرار، وكأنه يخشى الحديث مع البشر.

قلت له بإصرار شديد:

"أنا لن أتركك تذهب إلى أي مكان وحيدًا قبل أن أعرف كيف أكفر عن خطئي. فأنا الآخر وحيد، وليس لي إلا أنت."

وأعربت له عن استعدادي التام لسماع قصته، فلربما أستطيع مساعدته بأي شيء عوضًا عمّا اقترفته.

ذهبنا إلى إحدى الحدائق العامة، وبدأ الشاب يقص عليّ قصته.

لقد كان شابًا جامعيًا فتِيًّا، يدرس الفنون الجميلة، يحب الحياة والرياضة والمرح والألوان، دائم الابتسامة.

كان في السنة النهائية لدراسته، وكان منهمكًا في إنهاء مشروع تخرجه مع أحد زملائه.

وفي أثناء عودته من منزل زميله في ظهيرة أحد الأيام، رأى نيرانًا هائلة تشتعل في إحدى المدارس الخاصة، وكانت المدرسة بداخلها عدد من التلاميذ.

بينما ساد الارتباك كل مكان، وكان الجميع يلوذ بالفرار من تلك النيران، ألقى ذلك الشاب برسوماته وأحلامه واندفع داخل ألسنة اللهب لينقذ الأطفال ويخرجهم من فصولهم في مشهد بطولي.

ولكن القدر لم يمهله الوقت والقوة الكافيتين.

فأحاطت به الأدخنة الكثيفة وسقط مغشيًا عليه، وسقط على وجهه باب خشبي مشتعل، تسبب له في إصابته تلك.

وبعد أن انتهى كل شيء، اكتشف الشاب تلك الحقيقة المؤلمة.

وجد الجميع يخشون النظر إليه ويبتعدون عنه، ولا سيما أقرب الناس إليه.

فأمه ماتت حزنًا وحسرة على فلذة كبدها وما حلّ به، وإخوته هجروه وتركوه وحيدًا بعد أن اتهموه بالتسبب في وفاة أمه.

وبدلًا من أن يُعامَل كبطل قومي، كان يُعامَل كوحش مرعب أو عفريت يخشاه الناس ويُخيفون به الأطفال، وخسر كل شيء.

كان الشاب يستفيض في قصته كأنه لم يتحدث مع إنسان منذ ولادته، وكنت أستمع له بمزيج من الحسرة والألم اللذين يملآن النفس ويمزقان القلب تمزيقًا.

أفقت من نوبة السرحان التي اجتاحتني على صمت الشاب الذي خيّم فجأة، فنظرت له بأعين مغرورقة بالدموع. فتأسف لي على ما فعلته بي كلماته.

ولكنني أخبرته أننا نحن جميعًا الذين يجب علينا أن نتأسف له ونعتذر، فهو من أنقى وأطهر القلوب التي يمكن أن نراها في حياتنا.

توطدت علاقتنا أنا وهو، وكانت المفاجأة الكبرى لي أن تلك الحادثة التي أُصيب بسببها ذلك الشاب هي نفسها الحادثة التي أُصبت أنا فيها وأجبرتني على المعاش.

فالمصنع الصغير الذي كان يجاور المدرسة هو المصنع الذي كنت أعمل به، وأن إصابتي تلك نتجت من جراء عملية الفرار العشوائية التي حدثت وقت اندلاع الحريق.

فسقطت من ارتفاع عالٍ مما تسبب لي بكسر في منطقة الحوض وانزلاق غضروفي جعلني لا أستطيع الجلوس لفترات، ولا أقدر على الانحناء أو الوقوف المفاجئ.

كنت أشعر بأن شيئًا ما يربطني بذلك الشاب، وها هو ذلك الشيء.

كان نفس المصير بسبب نفس البداية، ولكن شتّان الفارق بين هذا وذاك؛ فهذا كهل في الخامسة والخمسين من عمره، أحب وتزوج وأنجب وعمل، وقرر بنفسه أن ينعزل عن الناس وأن يكون وحيدًا ولديه الفرصة للعودة إلى حياته الطبيعية وقتما

يشاء. أما ذاك، فهو شاب مسكين خسر الدنيا بكل ما يملك في لحظة واحدة قرر فيها التضحية لإنقاذ أناس لا يعرفهم.

كانت صدمتي عندما علمت من الشاب أن إمكانية شفائه قد فات أوانها، ولم يعد له أي فرصة للعودة إلى حياته التي كان عليها مرة أخرى. وأنه قد عزم الأمر على الرحيل من تلك البلاد بأي ثمن، فلربما يجد ذاته في مكان آخر يشعر فيه بقيمة الإنسان حتى ولو كان بمثل حالته. فقد أراد أن يعيش ما تبقى من حياته بسلام نفسي.

كانت كلماته كسكين حاد حاسم يمزق ما تبقى لي من أحاسيس، فحاولت مواساته ولكن هيهات.

فأنا نفسي كنت أود أن أفرّ مثله، وآخر ما طلبه مني ذاك الشاب أن أبحث عن الحقيقة وعن مَن يستحقون المساعدة بالفعل وأساعدهم.

همّ بالرحيل بعد أن تبادلنا عبارات الوداع، إلا أنني طلبت منه شيئًا أخيرًا، فكان عناقًا طويلًا.

فقال لي راجيًا:

"أرجوك لا تنم هذه الليلة، فإنني مسافر وليس هناك من يهتم لأمري، وكنت قد تمنيت شخصًا يسهر لأجلي في ليلة رحيلي."

رحل ذلك البطل الحقيقي الذي لم يرغب بالإفصاح عن اسمه لي، واختفى عن ناظري. وظللت حائرًا لا أدري ماذا أفعل.

وأخذتني قدماي للعودة إلى غرفتي الصغيرة حزينًا ومبهورًا بذلك الشاب. تمددت على فراشي وخيالاتي تسابقني لاستعادة ذكرياتي معه ومراجعة كل كلمة من كلماته، وكل تنهيدة وآهة، حتى جنَى الليل، وحان ميعادي المعتاد -وإن كنت لا أرغب بشيء- ولكنها كوكب الشرق تشعرني بأن هناك شيئًا ينقص تلك الليلة.

فأدرت المذياع لأجد الست تشدو من كلمات الشاعر الرائع "أحمد رامي" رائعته "يا مسهّرني" واصفًا حالتي بقوله:

يا مسهر النوم في عينيَّ

سهرت أفكاري وياك

الصبر ده مش بإيديا

والشوق واخدني في بحر هواك.

لم أنم في تلك الليلة، وظللت مستيقظًا حتى أشرقت شمس اليوم الجديد. وكنت ما أزال جالسًا على مقعدي الوثير في شرفة غرفتي. وحينما لفحتني حرارة الشمس أدركت أن القصة قد انتهت.

دخلت غرفتي وأغلقت الشرفة، وارتميت على فراشي وغفوت في سبات عميق امتلأ سريعًا بالأحلام والكوابيس مختلطة المشاعر.

لم أشعر بالوقت ولم أدرِ كيف نمت كل هذه الساعات حتى أنني استيقظت قبيل فجر اليوم التالي، أي أنني نمت ما يقارب اليوم الكامل.

بحثت عن بعض الطعام أسد به جوعي، وكان هناك فتات من الخبز وقطعة من الجبن، تناولته سريعًا.

وبعدها اعتدت فنجانًا من القهوة وجلست أدوّن كل ما حدث، وآخر ما دونته كانت كلمات الشاب، والتي اعتبرتها وصية واجبة النفاذ:

"ابحث عن أناس يستحقون المساعدة، وساعدهم."

الشيء وضده

ارتديت ملابسي وخرجت حتى وصلت إلى نفس الحديقة التي جلست بها مع ذلك الشاب، وجلست على نفس الأريكة وظللت أتلفت يمينًا ويسارًا لعلي أجد ذلك الشاب ثانية.كان هناك الكثير من الأشخاص يمرون من أمامي، ولكنني لم أكن أراهم أو أشعر بهم.إلا سيدة كانت ترتدي السواد الكامل وتتسول، وبعض المارة يتصدقون عليها بما تجود به نفوسهم.

كنت في داخلي أنظر إلى كل من يتسول نظرة تحقير وعدم احترام؛ كيف على إنسان أن يقبل بمد يده للغريب متسولًا ولا يبحث عن عمل يوفر له حياة كريمة؟

إن الإنسان الذي يمتلك الكرامة لن تجبره الأيام والظروف على التسول مطلقًا، ولكنه سيبحث عن أي عمل شريف يقتات منه.

فانظروا إلى بائعة الخضروات "الجرجير والبقدونس والشبت" التي تجلس لتبيع بضع حزم من الخضروات. بكم تبيع الحزمة الواحدة؟

وهل بيع كل ما تجلس به سيوفر لها احتياجاتها اليومية هي وأسرتها؟

العبرة هنا ليست في المال ولكنها تكمن في الرضا بما قسمه الله من رزق.

أما في حالة عدم الرضا والقنوط، فإنه لن يكفيك أموال قارون بذاته، وكما تقول الأمثال: "لقمة هنية تكفي مية".

كنت أنظر إلى المتصدقين وأود أن أصرخ بهم: اذهبوا إلى المساجد والمساكين بحق وتصدقوا إليهم، وما تلك المتسولة إلا مستغلة لطيبتكم ومستفزة لمشاعركم البريئة وحبكم لفعل الخير والجود.

قاربت الشمس على الرحيل ووجدت تلك المتسولة تقوم من جلستها وكأنها أنهت تسولها في ذلك اليوم، واكتفت بما جمعته من أموال هؤلاء المساكين. فرتبت ما جمعته ونظمته وسارت به.

ولفت نظري أن تلك السيدة تسير بشكل طبيعي وكأنها فتاة في قمة رشاقتها. استفزتني تلك المشية المريبة مما جعلني أتبعها لأعرف أين ستذهب وماذا ستفعل؟

هل ستذهب إلى سيارتها الفارهة؟ وتعود لطبيعتها المترفة بعد أن حصدت غلتها من وظيفة التسول تلك؟

ولكنني تفاجأت حينما وجدتها تدخل ساحة أحد المساجد الكبيرة حتى وصلت إلى باب المسجد الذي بجواره صندوق الزكاة والصدقات. فأخرجت كل ما جمعت من أموال وأودعتهم في الصندوق.

تعجبت من فعلتها تلك، وتساءلت: لماذا؟

لماذا تتسول تلك السيدة ثم تتصدق بكل ما جمعته؟

وماذا وراء هذه السيدة؟ ومن تكون؟ وما قصتها؟

اختفت السيدة عن ناظري عندما حل الظلام. وبحثت عنها فلم أجدها، فعدت أدراجي لغرفتي الصغيرة، وكنت قد ابتعت بعض الأطعمة لشعوري بشدة الجوع.

في غرفتي أكلت بشراهة غير معتادة وجلست أدون كل ما رأيت وأنا أحتسي قهوتي في الشرفة، وكنت مشتاقًا لسماع الست أم كلثوم في هذه الليلة.

والليلة كانت رائعة "دارت الأيام"، ودرات في رأسي تلك الأيام القديمة كعادتي مؤخرًا.

كيف كنت شابًا حالمًا طموحًا ينظر دائمًا إلى المستقبل الباهر ويسعى دائمًا إلى النجاح بتفوق، على الرغم من أنني نشأت في بيئة ريفية لأب وأم لم يتعلما ولم يعرفا قيمة التعليم. ولكن أبي كان دائمًا يقول لي:

"أنت أملنا فيما حرمنا منه... ولن نضيعك كما ضيعنا نحن، ولو اضطررنا لبيع ملابسنا كي تتعلم".

وعندما تفوقت في الثانوية، رفض والدي أن أبقى في الريف وأصر على استكمالي التعليم في القاهرة، وخاصة جامعة القاهرة العريقة. ولم يكن يعلم حينها شيئًا عن جامعة القاهرة غير دقات ساعتها العتيقة.

ولذلك فقد باع والدي نصف ما يملك حتى يوفر لي حياة كريمة في مدينة القاهرة لكي أتفرغ للدراسة.

وكيف قابلت زوجتي، تلك الفتاة الجميلة الصغيرة المرحة، وكيف كانت تبادلني مشاعر الحب والرومانسية.

كنت طالبًا بالسنة الأولى وكانت هي ما تزال بالثانوية، وبمجرد تخرجي من الجامعة تزوجنا بمباركة أبي وأمي اللذان ماتا بعد عام واحد من ولادة ابنتي الكبرى.

ماتت والدتي في البداية، ثم تبعها أبي بعد أشهر قليلة، وكان آخر ما قاله لي:

"أمك تناديني وأنا ذاهب إليها".

ثم نطق الشهادتين وفارقت روحه.

عدت إلى أرض الواقع بسبب وصلة التصفيق الحار من الجمهور الغفير بعد أن انتهت الست من تلك الأغنية الرائعة. وكنت على يقين تام بأنها سوف ترسلني إلى ذكرياتي القديمة وتثير في نفسي مزيجًا من مشاعر الحزن والحنين إلى الماضي.

نمت جيدًا في تلك الليلة ورأيت أبي وأمي في أحلامي يضحكان. ونظر لي والدي وقال بصوت حنون:

"لا تتعجل في الحكم على الناس من المظهر".

وفي الصباح أتممت فطوري وارتديت ملابسي وخرجت. توجهت مباشرة إلى تلك الحديقة، وكانت هناك.

كانت تجلس كما كانت بالأمس، لا تفعل شيئًا غير أنها تمد يدها فقط.

وبعض المارة يتصدقون بما تجود عليهم أنفسهم من أموالهم. وتذكرت حينها أنني طيلة حياتي لم أتصدق قط إلا في المساجد فقط، وبالأخص في شهر رمضان المبارك.

تحسست جيب سترتي وما به من مال، وأخرجت منه ورقتين ماليتين فقط، وذهبت إلى تلك السيدة وانحنيت كي أضع المال في يدها كما يفعل الكثير.

وهنا ثارت على آلام ظهري جراء تلك الانحناءة فأطلقت آهة ألم سمعتها تلك السيدة. فنظرت إلي، تلاقت أعيننا ورأيتها تملك قدرًا كبيرًا من الحسن والجمال مع مسحة حزن وانكسار في عينيها.

أشارت لي بالجلوس جوارها قائلة:

"استرح يا سيدي".

جلست بجوارها من شدة ألمي، وساد الصمت قرابة خمس دقائق دون أن ننظر لبعضنا البعض. فقطعت ذلك الصمت بسؤالي عن اسمها، فأخبرتني: "فلانة".

ما هذا الاسم؟!... فأعدت عليها السؤال مرة أخرى مستنكرًا تلك الإجابة. فقالت لي وهي تنظر بحسرة إلى الأرض:

"يا سيدي، لقد نسيت اسمي الحقيقي من كثرة الأسماء التي لقبوني إياها. فلك أن تختار ما يحلو لك أن تناديني به، سيكون ذلك أفضل".

تعجبت كثيرًا وشعرت بأن هذه اللحظة هي المرجوة. فسألتها عن قصتها، وكانت كمن تنتظر تلك اللحظة هي الأخرى بفارغ الصبر. وبدأت تقص علي.

كانت، وأصبحت

كانت فتاة ريفية جميلة جدًا – وهذا واضح حتى الآن – أحبت شابًا تلاعب بأحلامها ووعدها بالزواج، وللأسف وثقت به واستسلمت له، فأخذ ملاذه منها وتركها واختفى. لم تجرؤ تلك الصغيرة أن تخبر أهلها، وكانت تعلم أنهم سيقتلونها فور سماعهم ذلك الخبر المخزي. فقررت الفرار إلى القاهرة، واتجهت إلى المكان الوحيد الذي يحتضن أمثالها من الفتيات، وأصبحت فتاة ليل في أحد الملاهي الليلية، تشبع بحسنها رغبات من يقدره بالمال. أصبحت لا تبالي بأي شيء غير المال الذي يرمونه تحت أقدامها، متنقلة بين أحضان الرجال ككرة القدم؛ بعد أن ينتهي منها هذا، يبدأ ذاك، وهكذا. حتى أحبها رجل أعمال كبير وثري، وكان يغدق عليها بأموال كثيرة. كانت تستغل ذلك الأمر وتجعل ذلك الثري يلبي لها كل ما تتمناه وتطلبه دون تفكير منه. فاشترى لها ملهى ليليًا وفيلا، وأهمل عمله باهتمامه بها حتى باع أحد أملاكه، وهو مصنع قد تشرد عماله. بدأ الثري يخسر صفقاته وأمواله حتى قارب على الإفلاس. كانت قد حملت منه سفاحًا، ولكنها كانت تعلم أن

ذلك الحمل سيعيق عملها ويبهت حسنها. فقررت إجهاض ذلك الحمل سريعًا، ولكن الثمن كان أغلى مما تتمناه المرأة. فقد أخطأ الطبيب الذي أجرى لها عملية الإجهاض، وبخطأ منه تسبب في استئصال رحمها. وبعد فترة وجيزة، أقدم رجل الأعمال عشيقها على حرق إحدى منشآته للهروب من شبح الإفلاس، ولكنه أُدين بفعلته هذه وسُجن على إثرها. أما هي، فكان خبر استئصال الرحم قد أفجعها بشدة، فانهارت وأحسّت بشيء من الندم وقت لم ينفع فيه الندم. وقبل أن تستفيق من ندمها، فوجئت بإلقاء القبض عليها بتهمة إشاعة الرذيلة والفجور وإدارة أعمال منافية للآداب في الملهى الذي تمتلكه، فَسُجنت. وعندما قضت مدة سجنها، كانت لا تملك شيئًا على الإطلاق بعد مصادرة جميع أملاكها. فتابت ونوت الرجوع إلى الله، ولكنها كانت تخجل من أفعالها بشدة. وكانت تلك الطريقة التي قررتها للتكفير عما اقترفته من ذنوب ومعاصٍ. كانت تستفيض في الحديث وكأنها بتلك الكلمات تزيح عبئًا ثقيلًا من على عاتقها. كان الندم واضحًا على ملامح وجهها المكفهر وملموسًا من كلماتها. ولكنني لاحظت شيئًا غريبًا في حديثها معي؛ لاحظت أنها لم تبكِ ولم تذرف دمعة واحدة أثناء حديثها، على الرغم من أنها كانت متأثرة به كثيرًا.

هل كان ذلك من قسوة أفعالها التي قد غشيت قلبها وغلفته ببلادة المشاعر فأصبحت كالحجارة؟ أم أنها تظن أن ما تفعله قد أصلح ما أفسدت، ولم تعد تشعر بالندم الآن؟ لم أكن أعرف: هل أواسيها؟ أم أعاتبها وألومها، وأنفر من جلستنا تلك وأنا مستنكر لما فعلت؟ أنا لست فقيهًا في تلك الأمور الدقيقة، ولكنني أعلم أن الحسنات يذهبن السيئات. ولكن هل تسولها هذا يندرج تحت بند الحسنات أم السيئات؟ فهي هكذا تخدع الكثير لكي يتصدقوا بأموالهم لها، فتذهب هي لتضع ذلك المال في صندوق الزكاة. وهنا، هل هي من تتصدق؟ ولماذا لا تعمل هي فتتصدق بمالها الذي تكسبه من عملها بدلًا من التسول؟ كان الليل قد جَنَى، فتركتني تلك المتسولة واتجهت إلى المسجد لتضع ما جمعته في صندوق الزكاة. حاولت أن ألحق بها، ولكنني كنت أسير بصعوبة بسبب تلك الفترة التي جلستها بجوارها على الأرض. اختفت للمرة الثانية، ولم ألحق بها. بحثت عنها هنا وهناك، ولكنها ذابت بين الحشود المارة.

فات الميعاد

عدت أدراجي إلى غرفتي وأكلت وجبة خفيفة، واحتسيت قهوتي وجلست أدون ما حدث في هذا اليوم، وكل ما سمعته من تلك السيدة. حانت سهرتي مع معشوقتي الست أم كلثوم، وفي هذه الليلة كانت تشدو رائعتها "فات الميعاد". فهل هذه رسالة جديدة ترسلها إلى الست أم أنها رحلة في بحر الذكريات؟ أم أنها مجرد صدفة ليس إلا؟ استرخيت على مقعدي وأغلقت عيني وأطلقت عنان ذكرياتي باحثًا عما فاتني ميعاده. كانت الذكريات تتوقف عندما تلقيت اتصالًا من أبي يخبرني بمرض والدتي وأنها تطلب رؤيتي بأسرع ما يمكنني. وقد تجهزت لتلبية نداء والدتي، لكنني تأخرت لعدة ساعات لسبب لم أتذكره، وبدلًا من أن أصل لرؤية والدتي وتقبيل يديها وأحصل على رضاها، وصلت بعد أن انتهى كل شيء، فكانت تلك صدمة بالغة حينما وصلت إلى البيت لأجد من يخبرني بأنهم قد توجهوا إلى المدافن. أسرعت بكل ما أمكنني لألقي النظرة الأخيرة عليها وأودعها الوداع الأخير، ولكن للأسف الشديد فات الميعاد. كانوا قد أهالوا عليها التراب ولم ألحق بالصلاة

عليها ولا بالدعاء لها، فاعتبرت ذلك بأنها رسالة تخبرني أنها غير راضية عني، ولكن والدي أخبرني بأنها كانت تدعو لي وتقول إنها راضية عني كل الرضا، وقد هدأتني كلماته تلك. وعندما مرض والدي، تركت كل شيء وأسرعت إليه وجلست بقربه أرعاه حتى فاضت روحه إلى بارئها. لفحتني خطوط من الدموع التي سالت على خدّي، وأعادتني إلى أرض الواقع، وكانت الست قد انتهت من حفلتها. اتجهت إلى فراشي لأخذ قسط من الراحة، فكان جسدي يشكوني من ذلك المجهود الذهني والجسدي، وجلّدَتني عظامي عندما تمددت على الفراش ونمت. في اليوم التالي، توجهت إلى الحديقة لأجد تلك السيدة في نفس المكان. جلست بجوارها دون أن أحدثها، فقالت لي دون أن تنظر إلى: "ماذا تريد؟" نظرت إليها وأخبرتها بأن ما تفعله هو شيء خاطئ، وأن ذلك لن يغفر لها ما فعلته في ماضيها، وأنه لا بد لها أن تبحث عن عمل شريف تقتات منه وتتصدق منه إن أرادت المغفرة بحق. انزعجت السيدة بشدة وبكت، ولأول مرة أرى دمعة تسيل على خديها، ولكنها لم تدم أكثر من دقيقة واحدة، فقامت بسرعة ومسحت دمعتها اليتيمة التي غادرت مقلتها لتجف على خدها، وانسحبت وغادرت الحديقة دون أن تنبث بكلمة. تتبعتها وهي

تبتعد معتقدًا أنها ستعود، وجلست أنتظر عودتها، لكنها لم تعد ثانية. في الأيام التالية، كنت أذهب إلى هناك ولكنني لم أجدها ثانية إلى أن جاء يوم عندما ذهبت إلى نفس المكان، وجدت صندوقًا معدنيًا صغيرًا يشبه الصفائح المستخدمة في تعبئة الدهانات في ذلك الموضع الذي كانت تجلس فيه، وبداخله ورقة مهترئة. فأخذتها وفتحتها وشرعت أقرأ ما بها، فكانت رسالة موجهة إلى شخصي، خطّت بخط رديء متكسر كأنها كتبت بأنامل مرتعشة، وكان نصها كالآتي: "سيدي: من أنت لكي تحكم على أفعالي؟ أنت لا تعلم ما بداخلي وأنا لا أعلم ما بداخلك، ولكن الله وحده هو من يعلم ما بنا وينظر إلينا ويقلب أفئدتنا بين يديه، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو يقبل التوبة، فلماذا لم تقبلها أنت؟ سيدي: أنا ذاهبة إلى من يقبل توبتي دون معاتبة، فهو فقط يعلم ماذا فعلت من دون أن أشكو إليه، ويعلم ماذا أريد من دون أن أطلب منه. شكرًا لك يا سيدي". أثرت هذه الرسالة في نفسي تأثيرًا كبيرًا، وشعرت كأنني قد صدمتني شاحنة كبيرة حطمت أوصالي. عدت إلى غرفتي بصعوبة وأنا أحمل تلك الرسالة، وبداخلي مزيج من المشاعر الحزينة، ونفسي تلومني كثيرًا. تساءلت: بماذا تقصد تلك السيدة بفحوى تلك الرسالة؟ هل تقصد أنها سوف

تنتحر؟ أم أنها سوف تذهب إلى مكان آخر؟ أم أنها...؟ تساؤلات عديدة أطلت من رأسي محاولًا أن أتفهم ما تقصده، ولكنني لسبب ما لم أستطع التركيز والتفكير في ذلك، وكان ينتهي بي المطاف في كل مرة أفكر فيها إلى شعور بالرضا، فلربما جعلتها تقلع عن مخادعة هؤلاء المساكين بتسولها ذلك، ولربما قررت أن تبحث عن عمل بدلًا من التسول. كان صوت من داخلي يخبرني أنني فعلت الصواب.

الوسيلة

في اليوم التالي كنت أباشر رحلتي اليومية كما اعتدت، وفي هذه الرحلة جلس بجواري شاب يرتدي زيًا أزهريًا بغاية الوقار والشموخ، كنت أتفحص وجوه الركاب من حولي محاولًا أن أجد لنفسي ما يشغلها، إلى أن مر من أمامي فتى يقوم ببيع بعض الولاعات وأشياء أخرى. فأعطى الفتى لي واحدة من هذه الولاعات، فأعدتها إليه ونظرت له نظرة احتقار، وذلك لأنني أعتبر أن هذه طريقة من طرق استغلال مشاعر الآخرين باستخدام الأطفال المتشردين، وأنه كمثل التسول تمامًا. ولكنني فوجئت بذلك الشاب الأزهري يبتاع من ذلك الفتى عددًا من تلك الولاعات ويمنح الفتى مبلغًا يزيد عن ثمن ما اشتراه من ولاعات. نظرت لذلك الأزهري وانتظرت حتى ابتعد الفتى، فقلت للشاب الأزهري: "أنت بذلك تساعد هذه النوعية من المتسولين على الانتشار، لا بد أن نمنعهم مما يفعلون". نظر لي الشاب الأزهري وابتسم وأشار لي أن أنتظر، وهو يشير بخفاء إلى ذلك الفتى الذي كان يقف في زاوية من عربة المترو. وقبل أن أسأله عما يقصده، رأيت الفتى يقترب

منا مرة أخرى وهو يمد يده بمبلغ لذلك الأزهري وهو يقول له: "تفضل يا سيدي، هذا المبلغ زائد عن ثمن ما اشتريت". وقتها نظر لي الأزهري وابتسم وأشار للفتى على ما يبيعه، وتناول بعض القداحات بذلك المبلغ الباقي، ففرح الفتى كثيرًا وشكر الأزهري وابتعد. التفت لي ذلك الأزهري وقال لي: "يا سيدي، هؤلاء المساكين هم الوسيلة للوصول إلى الله، وأنت لم تستغل وسيلتك تلك، وشغلت أفكارك بما تأخذ وبما تعطي، ونسيت تمامًا أنها تأخذ من الله وتعطي لله، وما هي إلا وسيلة". أحسست حينها بدوار خفيف وتساءلت: من هذا الشاب؟ وماذا يعرف عني كي يخبرني بتلك الكلمات؟ ومن يقصد بالتي تأخذ وتعطي؟ وفي حين انخراطي بهذه التساؤلات، قال لي متابعًا: "لماذا ترهق عقلك بتساؤلات غير مجدية؟ تعلم مرة أن تتعلم، وربما نتقابل قريبًا، حينها ربما ستعرف إجابات لتلك التساؤلات التي تشغل عقلك". هززت رأسي متفهمًا في البداية، ولكنني دققت في كلماته وأدركت أنني لم أفهم مقصده. فنظرت له لكي أفهم ماذا يقصد، ولكنني لم أجده بجواري، بل كان المقعد خاليًا تمامًا. دارت رأسي بشدة وزاد الدوار الذي أشعر به. أين ذهب ذلك الأزهري؟ ومن يكون؟ وكيف اختفى فجأة؟ أسرعت عائدًا إلى غرفتي الصغيرة

مرة أخرى، وجلست ما بين الشك والحيرة أتمزق من داخلي. تناسيت الطعام والشراب، حتى قهوتي، إلى أن جنا الليل واقترب ميعاد معشوقتي الست أم كلثوم. التقمت بضع لقمات من الخبز أثناء إعدادي للقهوة وجلست أنتظر انطلاق ذكرياتي مع بداية الحفل. سبحت في سماء القاهرة المظلمة وعدت إلى أرض الواقع ثانية على وقع دقات خشبة المسرح المعتادة التي تعلن عن بدء الحفل، وكان موعد الليلة مريبًا للغاية مع "ثورة الشك".

"أكاد أشك فيك لأني... أكاد أشك فيك وأنت مني يقول الناس إنك خنت عهدي... ولم تحفظ هواي ولم تصني وأنت منالي أجمعها مشت بي... إليك خطى الشباب المطمئن". حتى تلك اللحظات التي أفر بها من متاعبي اليومية، هي نفسها التي تعيدني مرة أخرى إلى ظنوني وشكوكي وتثير ريبتي حول ما حدث في ذلك اليوم. انتهى ذلك الحفل وانتهت تلك الليلة وغفوت. في الأيام التالية كانت الحياة رتيبة عادية ولم أرَ أي جديد يشغلني، غير أنني كنت ما زلت أرتاب مما حدث مع ذلك الشاب الأزهري. كنت أستمتع كثيرًا بالبرنامج اليومي الممل الذي وضعته لي. وفي أحد الأيام دار بجانبي حديث بين رجلين من الراكبين لذلك القطار الذي أستقله، كانا يتحدثان عن

اقتراب المولد. وهنا انتبهت لحديثهما جيدًا، فأنا منذ أن كنت صغيرًا وأنا أعشق تلك الموالد وما بها من فرحة ونشوة وراحة قد لا تجدها في أي مكان آخر. لاحظت الجدال الدائر بين هذين الرجلين حول شرعية الأضرحة والأولياء وما إلى ذلك. كان أحد هذين الرجلين من مريدي آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآخر كان يحرم وجود تلك الأضرحة وحرمانية التبرك والتشفع بالأولياء والتمسح بالأضرحة، بل ويحرم الصلاة في تلك المساجد التي بها أضرحة. انتهى الجدال بدعوة صريحة من ذلك الرجل المتبارك بآل البيت لزيارة أحد تلك المساجد، وفي أحد الموالد القريبة. وقد اتفق الرجلان بأن يكون موعدها في الليلة الكبيرة لمولد سيدنا الحسين رضي الله عنه، وأن يتقابلا هناك في مكان وموعد حدداه بدقة، وأن يتابعا جدالهما ونقاشهما ذلك على أرض الواقع. دونت ذلك الميعاد وذلك المكان كي لا أنساه، وعندما رجعت إلى غرفتي كنت لا أزال أفكر في جدالهما ذلك، فشرعت أبحث عن معلومات تخص ذلك الموضوع لأتعرف أكثر عن تلك الموالد. لم أفهم شيئًا مما قرأت، ولكنني أحسست بيد خفية تجذبني للذهاب إلى ذلك الموعد. تابعت البحث، ولكن هذه المرة قرأت عن سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما، وهو سيد شباب

الجنة، وعلمت أن مولده يقام في كل عام مرتين. المرة الأولى هي في ذكرى ميلاده، والمرة الثانية هي في ذكرى انتقال رأسه الكريم إلى مصر إبان العصر الفاطمي، وذلك عندما خشي الخليفة أن تصاب رأس سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه بمكروه في فلسطين بسبب الحروب الصليبية آنذاك، فأرسل طلبًا بنقل الرأس الكريم إلى قاهرة المعز للحفاظ عليها. وكان أغرب ما قرأته عنه أن رأسه ما زالت تقطر دمًا لا يجف إلى الآن وهي في موضعها الحالي.

الليلة الكبيرة

في الموعد المرتقب تجهزت جيدا قبيل خروجي استعدادا للذهاب إلى المولد، وفي الطريق كنت كلما اقتربت أجد الطريق يزداد ازدحاما شيئا فشيئا، ناهيك عن أن مسجد الحسين يقع بالقرب من منطقة العتبة وشارع الموسكي الشهير بمحال الملابس والتحف الأثرية التي تجذب السياح. ومع ازدحام الطريق بدأت تتزاحم معها الذكريات القديمة في رأسي وكأنني أسير إلى الماضي، حتى لاحت الأضواء الملونة، والتي يغلب عليها اللون الأخضر، التي تنبئك بأنك في حضرة مولانا. عندها ترى خليطا من جميع أطياف البشر وتنوع الأجناس من كل ربوع وأقطار الأرض. تجد الكبير والصغير، الرجال والنساء، المنتقبات والمتبرجات، المصريين والأجانب... حينها ستعرف بأنها الليلة الكبيرة، بالفعل كما وصفها الشاعر الكبير عمنا صلاح جاهين بكلماته وصاغ لحنها الرائع سيد مكاوي، وأحياها صلاح السقا بإخراجه المتميز مستخدما عرائس الماريونت الجميلة من تصميم الفنان ناجي شاكر:

الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كثيرة

ماليين الشوادر بابا من الريف والبنادر

دول فلاحين ودول صعايدة

دول من القنال ودول رشايدة

الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كثيرة

بالفعل، إنها الليلة التي لن تنساها مهما حييت. تجد كل من فيها يبحث عن ليلاه وينال مبتغاه، كلٌّ على اختلاف. تجد الأطفال يلهون ويمرحون ويفرحون بالحلوى والألعاب والهدايا. وتجد الكبار كذلك سعداء بما يشاهدونه ويفعلونه. وتجد السائحين الأجانب يشاهدون هذه الطقوس بانبهار شديد، ويلتقطون الصور الفوتوغرافية، ويسجلون تلك اللحظات باهتمام بالغ. وتجد فيها أيضا المتسولين هنا وهناك يستفزون مشاعر الكرماء. وتجد الدراويش ينظرون إلى ما يراه غيرهم بلا حراك، وكأنهم تماثيل. وتجد من يأتون بالأطعمة إطعاما للفقراء ابتغاء وجه الله. وتجد الفقراء يأكلون ويشربون من هذه الولائم، وهم داعون لأصحابها بزيادة الرزق.

تعجبت كثيرا من ذلك المجتمع المختلط وذلك الجمع المهيب، غير أن هناك بعض الأمور السيئة التي يفعلها البعض

من العامة. فحدثت نفسي مستنكرا تلك الأفعال المسيئة التي تحدث، قائلا بصوت مسموع:

"أهؤلاء هم الأصناف التي تأتي إلى هنا؟ يأكلون ويشربون ويمرحون ويبيعون ويبتاعون، ومنهم من يفعلون المعاصي والأمور اللا أخلاقية، فيسرقون ويتحرشون؟ يا للأسف".

وهنا انتبهت لتلك الوكزة التي وكزني بها رجل من خلفي، وإن كنت أحسبها اصطداما طبيعيا. فالتفت إليه قاصدا المعذرة، اعتقادا مني بأنني من ارتطمت به دون قصد، وقلت له:

"أعتذر يا سيدي، لم أرَ جيدا".

وجدته درويشا بملابس مهلهلة أغلبها، ويتدلى على صدره عقد كبير كأنه مسبحة، ونظراته هائمة. فوضع يده على كتفي وقال لي بصوت عميق كأنه صدى للصوت:

"بالفعل، أنت لم ترَ جيدا".

ثم أشار إلى رجل يجلس مستندا إلى حائط المسجد، يقرأ القرآن الكريم وهو يبكي خاشعا وكأنه منعزل تماما عما حوله من صخب. فقال الدرويش لي، معلما بنفس نبرته العميقة:

"لأجل هذا... يُكرم هؤلاء".

ركزت ببصري على ذلك الرجل الخاشع، وفهمت ما يقصده ذلك الدرويش، وبدأت أرى ما يدور بشكل مختلف. رأيت من يصلي ومن يقرأ القرآن، ومن يتصدق ومن يطعم الفقراء، ومن يساعد الكبار وغير القادرين. ذلك هو المغزى إذا.رجعت ببصري إلى ذلك الدرويش ثانية كي أحدثه وأعتذر له عن خطئي، لكنني لم أجده... فلقد اختفى تماما وكأنه تبخر، أو كأنه لم يكن موجودا هنا من قبل. بحثت بامتداد بصري عن ذلك الدرويش في كل مكان تصله عيني، ولكنني لم أجد له أثرا. دبَّت بداخلي الحيرة وارتبكت قليلا، ولكن أواصر روحانيات هذا المكان بدأت تسري في جسدي وتحل محل الحيرة والارتباك الذي طرأ علي، ووجدتني وسط ساحة المسجد تماما. ويفصل بين موقعي الحالي وذلك الموقع الذي وكزني فيه ذلك الدرويش مسافة كبيرة. لم أدرِ كيف اجتزت كل هذه المسافة دون أن أشعر، وكأنما قد بسطت لي الأرض كي أصل إلى هذه النقطة.

ووسط تلك الأجواء الروحانية، عادت بي الذكريات سريعا إلى الطفولة... عندما كنت صغيرا كان أبي -رحمة الله عليه- يأتي بي إلى تلك الموالد. كنت أعرف كلمة مولد جيدا، وأعلم ما بها من مرح ولهو وألعاب وهدايا، ولكنني لم أكن أستطيع التفرقة

بينها، فلا أعرف الفرق بين مولد النبي ومولد الحسين ومولد السيدة. ولكنني كنت أعرف المتعة والسعادة حينما يحملني أبي فوق أكتافه ويسير بي وسط الحشود الغفيرة، فكنت كأنما أرى العالم أجمع. وقليلا ما كان يجبرني أبي على السير على قدمي، وكان يبتاع لي الكثير من الحلوى والطرابيش الملونة، والمزامير، والأحصنة الحلوى، والجمال المحشوة بالقش.

وكانت روائح البخور الممتزجة برائحة بارود البومب لا تزال في أنفي وكأنني كنت هنا بالأمس القريب. وددت لو أنني أستطيع أن أمرح مع هؤلاء الصبية، ولكم وددت لو أنني لم أكبر، وأن أظل صغيرا لا أعبأ بمتاعب الحياة وهموم الأسرة والعمل، وحمل هذه المسؤوليات التي تكاد تقتلنا قتلا.

مولانا

سقطت من ذكرياتي إلى أرض الواقع ثانية، فتذكرت ما كنت قد أتيت لأجله... نعم! إنه ذلك الموعد المرتقب. كنت قريبًا جدًا من الموقع المتفق عليه بين الرجلين، فتوجهت إليه مباشرة، وانتظرت فترة ليست بالطويلة، وإن كانت هذه الأجواء كفيلة بإضاعة الوقت في ذكريات الطفولة البريئة. على بعد عدة أمتار رأيت وجهًا مألوفًا لي، فكان ذلك الرجل صاحب هذه الدعوة... لا أعلم لماذا تذكرت ملامحه بهذه السهولة، ولكنني لم أتحرك من موقعي ولم أبدِ أي انفعال حتى أرى ماذا سيفعل، وهل سيأتي الرجل الآخر أم لا... ولكنني فوجئت به يبتسم لي وكأنه يعرفني جيدًا، واقترب مني وألقى تحيته علي. تلفتُّ من حولي لأتأكد من أنه يقصدني أنا ولا أحد غيري، فرددت إليه تحيته بمثلها، فدعاني للسير معه. فاستوقفته متسائلًا: "هل تعرفني يا سيدي؟". ابتسم وقال لي بثقة كبيرة: "بالفعل يا سيدي! فنحن في انتظارك. تفضل من هنا". ذهلت من كلماته تلك، فقلت له بحيرة: "في انتظاري أنا؟ من أنتم؟ وهل تعرفونني حقًا؟". فقال لي برقة وكأننا أصدقاء: "يا سيدي! أنت

ضيف مولانا... فلقد دعاك أنت، وها أنت قد قبلت دعوته... تفضل من هنا". سرت خلفه حيث أشار، مخترقًا الحشود في صمت وسط ممرات بشرية ضيقة، ولكنها كانت تبدو سالكة... حتى توقفنا أمام سرادق أو خيمة متوسطة عرفت أنها تُسمى خدمة فدخلناها. كان هناك عدد من الرجال والشباب يتحركون في كل اتجاه يقومون بخدمة الجالسين بتقديم الأطعمة والمشروبات للضيوف في جانب من الخيمة على مائدة مطولة. أما وسط الخيمة، يجلس عدد كبير من الرجال يستمعون إلى جلسات الذكر متكئين على وسائد متراصة، وقد يُلاحظ في هذا الجمع التنوع بين طبقات الحضور، فيمكنك أن تجد الشباب والشيوخ، الفقراء والأثرياء ومتوسطي الحال، كما هو ملحوظ من تنوع الملابس، ويمكنك أن تجد أبناء بحري والريف والصعيد وأبناء المدن... وغيرهم. وفي الوجوه يمكنك أن ترى المظلوم والضعيف والقوي وصاحب المنصب والمسؤول والمتعلم والجاهل. وبينما أنا أدور ببصري في أرجاء تلك الخيمة متأملًا الأجواء الساحرة، رأيت شيئًا عجيبًا... كان من بين الحضور ذلك الشاب الأزهري الذي قابلته من قبل في قطار المترو جالسًا، ولكنه كان رثَّ الثياب غير الأزهرية، ولكنه ما زال محتفظًا بهيبته ووقاره وهو يردد الذكر مع الذاكرين،

متمايلًا برأسه وهو مغمض العين. وعندما وقعت عيناي عليه وجدته يفتح عينيه وينظر إلي مبتسمًا وكأنه علم أنني أنظر إليه، فرددت إليه الابتسامة بشيء من التوتر... وكنت مشدوهًا لوقع تلك الكلمات التي يرددونها جميعًا بأسلوب إنشادي يتخللها بين الحين والآخر نداءات بصوت مرتفع: "حي" و"الله" و"صلي على رسول الله"... وكانت أصواتهم هادئة إلا في هذه النداءات، حيث يعلو النمط وكانت تزلزل الأفئدة بحق.

"تَأَوَّهَ قَلبي والفؤادُ كَئيبُ

وأُرِّق نَومي فالسُّهادُ عجيبُ....

فمَنْ مُبلغٌ عنّي الحسينَ رسالةً

وإنْ كَرِهَتْها أنفسٌ وقلوبُ....

ذبيحٌ بلا جُرمٍ كأنَّ قميصَهُ

صبيغٌ بماءِ الأُرْجُوانِ خضيبُ....

فَلِلسَّيفِ إعوالٌ وللرُّمح رَنَّةٌ

وللخَيْلِ من بَعد الصَّهيلِ نحيبُ....

تزلزلتِ الدُّنيا لآلِ محمّدٍ

وكادتْ لهم صُمُّ الجبالِ تذوبُ....

وغارتْ نجومٌ واقْشَعَرّت كواكبٌ
وهُتِّكَ أستارٌ وشُقَّ جيوبُ....
يُصلَّى على المبعوثِ من آلِ هاشمٍ
ويُغزَى بنوه، إنّ ذا لَعجيبُ....
لئنْ كان ذنبي حبُّ آلِ محمّدٍ
فذلك ذنبٌ لستُ عنْه أتوبُ....
همُ شفعائي يومَ حشري ومَوْقِفي
إذا ما بَدَتْ للنّاظرينَ خُطوبُ". الإمام الشافعي

كنت مبهورًا من ذلك التناغم المتناسق غير المرتب بينهم، وكنت بلا وعي أردد معهم وأتمايل بنفس النسق مثلهم. بعد انتهاء حلقة الذكر هذه، بدا وكأنهم في استراحة، فاقترب مني أحد الشباب وهمس في أذني يسألني ماذا يقدم لي طعام أم شراب؟ فشكرته وأخبرته بأنني لا أرغب في شيء، وهمَّ أن ينصرف إلا أن منعه صوت جاء من خلفه يقول له: "أحضر لضيف مولانا قهوة سادة ممزوجة بقليل من حبة البركة". نظرت إلى صاحب الصوت فكان هو ذلك الشاب الأزهري، فانصرف الشاب الآخر مأمورًا بذلك الأمر وتركني في ذهول من وقع المفاجأة، فجلس الأزهري بجواري وهو يبتسم قائلًا

بشرود: "أخبرني! هل ما زلت تبحث عما تريد؟". أمعنت النظر إليه بنفس الذهول... فقلت له متسائلًا: "من أنت؟ وماذا تريد مني؟". قال وهو يتكئ إلى الخلف: "عابد هو اسمي! أما ما أريده فلا شيء... بل أنت الذي تريد". ثم أطرق النظر إلى السماء وتابع قائلًا: "إن كنت ما زلت تبحث عن الحقيقة؟ فكلنا كذلك... ولكن الحقيقة ذاتها تبحث عن مَن؟... إن الحقيقة تختلف من منظور كل شخص فينا". التفتُّ إليه متسائلًا فأنا كنت أنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر: "إذًا! فما هي الحقيقة؟ وكيف أجدها؟". فابتسم وهو شارد الذهن... وقال بصوت بطيء كأنه يرتل: "الحقيقة لا ينطق بها لسان... بل هي ذوق ووجدان". هززت رأسي دون أن أدرك مغزى قوله، ولكنه تابع قائلًا كمن يلقنه أحد ما: "أهل الحقائق! الحقيقة مختصة بأهل الحقائق". نظرت إليه متفاجئًا وأنا أسأله: "أهل من؟". أغمض عينيه وهو متكئ للخلف... وقال بصوت حسبته لم يخرج من فيه: "أهل الحقائق... هم الذين يحتملون الأذى، ويصبرون على البلوى، ويرضون بالقضاء، ويفوضون إليه أمورهم من غير اعتراض، خاضعون متواضعون". فأمسك بيدي وضغط عليها برفق متابعًا: "أهل الحقائق... هم خيرة الله من خلقه، وخواصهم من عباده، اختصهم لدينه، وهم من

الخلق بالخلق مختلطون، لا يُشار إليهم بالأصابع، وهم غير أخفياء، والأعين عنهم مصروفة... وهم غياث الخلق". وهنا تحولت ضغطة يده من الرقة إلى شيء من القوة جعلتني أنظر إليه... فقال مرددًا: "وهم غياث الخلق".

غياث الخلق

خرجت من الخيمة بعدما انتصف الليل، وكنت منتشيًا سعيدًا بتلك الروحانيات، وكنت كمثل التائه في صحراء... فوجد فيها حديقة غنّاء وآبار مياه فأكل وارتوى حتى اكتفى.

وصلت إلى غرفتي ولا أعلم كيف حدث ذلك، وكيف كنت أتنقل في وسائل المواصلات من وسيلة لأخرى كما لو أنني مغيب أو فاقد للوعي.

جلست في شرفتي أنظر إلى سمائي الواسعة مغرمًا.

كانت تلك هي الليلة الأولى التي لم أستمع فيها إلى معشوقتي الست أم كلثوم، ولكنني على خلاف ما تعودت لم أشعر بالغضب ولم أندب حظي لذلك.

بل إنني كنت منتشيًا، وعقلي يعيد ذكريات تلك الليلة وكلمات ذلك الشاب شاكر تتردد في أذني، وأنا غارق في لذة احتوتني كليًا.

مر الوقت سريعًا دون أن أشعر به إلا حين لفحتني أشعة الشمس وأغشت عيني المنتفختين من فرط السهر.

أخذت كفايتي من النوم على سريري واستيقظت قبل حلول المساء بقليل.

قررت النزول إلى الشارع، وأخذتني قدماي إلى أحد محال الكشري، فدخلت وطلبت لي طلبًا مخصوصًا منه.

وأثناء تناولي الطعام إذا بالأصوات تعلو من صيحات وضجيج... التفت كل من في هذا المحل إلى مصدر هذه الضجة، التي لم تكن سوى عدد من العاملين بالمحل ينهرون ويضربون رجلًا فقيرًا متشردًا، وكان مظهره يوحي إليك بشيء من الاشمئزاز من أول وهلة.

تابعت الموقف باهتمام حتى نجح العاملون بإبعاد ذلك المتشرد بعيدًا عن المحل، فعاد كل ذو عمل إلى عمله، وكل زائر إلى طعامه.

مر بجواري أحد هؤلاء العاملين فأوقفته وسألته عما حدث...

فضرب العامل كفيه ببعضهما وقال لي شارحًا:

"سيدي، إن هذا المتشرد من مدمني المخدرات وقد ذهبت هذه السموم بعقله ولم يعد يعي شيئًا مما يفعله".

زادت كلماته هذه من اشمئزازي، ولكنني أخبرته بأنه لا بد أن يتعامل مع هؤلاء المتشردين بشيء من اللطف مهما كانت حالتهم.

فقال لي متعجبًا:

"أستاذي، إنه ليس بعالمنا الآن... فهو لم يعد يشعر ولا يدرك شيئًا، ومهما قمنا بطرده أو ضربه فإن ذلك لا يؤثر به مطلقًا... فلقد أخذت تلك المخدرات اللعينة عقله وإحساسه".

أكملت وجبتي مشمئزًا وبغضب متسائلًا: كيف لرجل عاقل أن يلقي بنفسه إلى أحضان تلك السموم، وهو يعلم يقينًا أنها لن تؤدي به إلا إلى الهلاك؟

خرجت من المحل وسرت قليلًا إلى أن لمحت ذلك المتشرد المدمن، وهو ملقى على جانب من الطريق وسط القاذورات.

كان جسده ملتويًا متخذًا وضع الأجنة في بطون الأمهات، ضامًّا ركبتيه إلى صدره ويمسكهما بذراعيه.

تأملته بدقة من على بُعد، حتى لاحظت عليه تشنجات توحي بأنه يتألم... اقتربت منه بحذر فوجدته يبكي ويئن ويتأوه بصوت مكتوم.

اقتربت منه كثيرًا، ولم يعد يفصلني عنه سوى أمتار قليلة، بينما رائحة القذارة ملأت أنفي.

فسألته وأنا شديد الحذر:

"هل أنت بخير؟".

التفت إليّ منتفضًا خائفًا إلى أن رآني، فتغيرت ملامحه قليلًا، ولكنه أشار بيده أن أرحل بعيدًا.

لم أتحرك قيد أنملة عن موضعي، وظل هو يرمقني بعينيه الزائغتين، وهو لم يزل بنفس الوضعية التي كان عليها.

وفجأة، سعل بشدة والتوى إلى أن أفرغ ما في جوفه دون أن يتحرك أو يشعر بما يفعل، ثم سقط مغشيًا عليه بلا أي حراك.

ارتبكت قليلًا ولم أدرِ ماذا أفعل، ولكنني قررت ألا أتدخل فيما لا يعنيني، فتركته واستدرت مبتعدًا، ولكن أذني التقطت تردد كلمات عابد مجددًا:

"وهم غياث الخلق".

أدركت مغزى تلك الجملة وتسمرت في موقعي.

كيف يمكنك معرفة الحقيقة وأنت لست من أهل الحقائق؟ وأهل الحقائق هم غياث الخلق.

فلم أتردد بعدها وانطلقت إلى أقرب كشك وطلبت إجراء اتصال، واتصلت بالإسعاف وأبلغتهم عن الحالة.

مرت دقائق حتى جاءت سيارة إسعاف فوقفت بمنتصف الشارع، يتساءلون أين هي الحالة التي بجانب كشك السعادة، كما أبلغتهم أنا.

وبسؤالهم لصاحب الكشك أشار إلى أنني من اتصلت، وكنت ما زلت واقفًا بعيدًا.

أبلغتهم عن ذلك المتشرد، ولكنهم رفضوا التعامل مع حالته تلك، وهموا بالرحيل، ولكنني أعطيتهم إكرامية ببضعة أوراق مالية، مع بعض الكلمات ما بين التهديد والتودد، حتى وافقوا على التعامل مع الحالة، بعدما أصروا على اصطحابي للحالة.

من يكون؟

انطلقنا إلى مستشفى الدمرداش، ووجدتني أجلس بجوار رجل متشرد مدمنًا للمخدرات لا أعرفه، وأصبحت مسؤولًا عنه أيضًا. وكالعادة، انطلقت تساؤلات عديدة في رأسي، وكان من أهمها:

من هذا الرجل؟ وكيف أصبح مدمنًا؟ وما هو مصيره؟

كانت ملامحه توحي بأنه لم يكن هكذا منذ زمن. كان في أواخر العقد الرابع من عمره، وكانت ثيابه رغم تمزقها واتساخها توحي بأنها كانت يومًا ما أنيقة. كان يرتدي سروالًا ممزقًا، ولكن خامة قماشه من نوعية أقمشة البزات، ولكنها لم تعد كذلك بالطبع، فقد طغت الأوساخ على معظمها.

دخلنا بالحالة استقبال وطوارئ المستشفى، بعدما دوّنوا كل بياناتي ووقعت لهم تعهدًا بمسؤوليتي عن ذلك الرجل. وبعد

ما يقرب من الساعة الكاملة، قام أحد العاملين بالمشفى بالنداء ليخبرني بأن الطبيب المختص يطلب مقابلتي.

جلست أمام طبيب في غاية الوقار، على الرغم من أنه في ريعان شبابه، ولكنه كان يتحاشى النظر إلي مما جعلني أتوتر نسبيًا. كان يتفحص بعض الأوراق والتقارير التي كانت من الواضح أنها فحوصات طبية تخص ذلك المتشرد وحالته الصحية. أطلقت تنهيدة بصوت مسموع لعله يتنبه إلى وجودي، وبالفعل قد تنحنح قليلًا ونظر إلي متفحصًا، وقال بعد أن تنفس عميقًا:

-"معذرة يا سيدي، ما هي صلة القرابة بينك وبين تلك الحالة؟"

أخبرته بأنني لا أعرف ذلك المتشرد مطلقًا، وحكيت له ما حدث بالتفصيل، فتفهم ولكنه أخبرني بأنني قد أصبحت المسؤول عن هذا الرجل، وأنني ملزم بالبقاء في المشفى حتى الانتهاء من الفحوصات والتحاليل والوقوف على الحالة الصحية وتحديد علاجه.

وأخبرني أن ذلك الرجل مدمن للمخدرات كما هو واضح من التحاليل المبدئية، وأنه لا بد من إبلاغ الشرطة على الفور،

وأنهم في شك بوجود احتمالية إصابته بأمراض خطيرة، منها احتمال إصابته بفيروس نقص المناعة "الإيدز".

تم إبلاغ الشرطة، وتم التحفظ على الحالة وتوجيه سيل من الأسئلة إلي. وبعد فترة، استدعاني الطبيب مرة أخرى إلى مكتبه، ولكن في هذه المرة كان معه ضابط الشرطة وطبيب آخر علمت فيما بعد أنه مدير المستشفى.

أخبروني بأن ذلك الرجل مريض بفيروس نقص المناعة "الإيدز"، وأن حالته حرجة للغاية بسبب تليف شديد في الكبد والكليتين، وأنه لا بد من وضعه في مصحة خاصة لعلاج الإدمان تحت رقابة أمنية.

لم أكن أعرف كيفية التصرف في تلك الأمور. فماذا أفعل؟ أو ماذا فعلت بنفسي من البداية؟ وكيف أقحمت نفسي بنفسي في أمور لا تخصني؟ وما الذي سيؤول إليه ذلك الوضع؟

أوشكت أن أطلق زفرة غضب، ولكنني تذكرت كلمات "عابد"، وسمعتها تتردد مرة أخرى في أذني:

"أهل الحقائق... هم الذين يحتملون الأذى، ويصبرون على البلاء، ويرضون بالقضاء."

يا الله! ها أنا ذا أتحمل الأذى، وأصبر على البلاء، ورضيت بالقضاء. هل أكون أنا المعني بتلك الصفات؟

تابع صوت "عابد" تردده:

-"وهم غياث الخلق."

فهل اختصني الله -سبحانه وتعالى- وسخّرني لخدمة ذلك الرجل؟ ولكن لماذا أنا؟ ولماذا ذلك الرجل المدمن المتشرد؟

ولكن إن كان هذا هو أمر الله -عز وجل-، فأنا على العهد باقٍ، وأنا بالقضاء راضٍ، وعلى البلاء صابر، وللأذى محتملًا.

انتفضت من شرود تلك الأفكار على وكزات من ممرضة المستشفى تخبرني بأنهم يستدعونني إلى مكتب الطبيب المختص مرة أخرى.

أمام ذلك الطبيب وقفت ثانية، ليخبرني بأن ذلك المتشرد قد استفاق ويريد أن يلتقيني، أنا الرجل الشهم الذي أتيت به إلى هنا، ليتحدث إلي. ولكن لا يجب علينا الإطالة بتلك الزيارة لسوء حالة المريض. وشدّد أيضًا على الالتزام بمهمات الوقاية الخاصة بحالته، وسيساعدني في ارتدائها الممرضون.

جلست على مقعد بجوار أحد الأسرة في غرفة الرعاية الصحية، وكان ذلك المتشرد يرقد بوجه شاحب ومحاطًا ببضعة خراطيم

وأسلاك تصل جسده بأجهزة ومحاليل. وكان السرير محاطًا بغلاف بلاستيكي يعزل المريض عن الزائرين، وإن كانت هناك لافتة على باب الغرفة تعلمك بأن الزيارة ممنوعة تمامًا.

نظر إلي ذلك المتشرد وأمعن النظر في وجهي، وقال بصوت مكتوم من خلف الغلاف البلاستيكي:

-"هل أنت من أتي بي إلى هنا؟"

هززت رأسي أي نعم، فقال لي معاتبًا:

-"ألم أخبرك بأن ترحل وتتركني؟ لماذا لم تستمع لي؟"

أخبرته بأنه لا داعي لتلك الكلمات السخيفة، وأنه يجب عليه أن يسترح وألا يشغل نفسه بتلك التفاهات. فقال لي بابتسامة باهتة حزينة:

-"أنا أعلم ما أنت فيه، لذلك فقد طلبت حضور الطبيب المعالج ورجل الشرطة لكي أعفيك أمامهم من مسؤوليتي... وإنك فاعل خير قد أرسلك الله إلى مدمن متشرد لا أكثر."

حاولت أن أثنيه عن التحدث، ولكني فوجئت بدخول الطبيب وضابط الشرطة. فأشار لي الرجل بالصمت والاستماع فقط، وقال لنا:

-"الآن... أشعر بأنها النهاية، لذلك أود منكم أن تستمعوا إلى حديثي هذا جيدًا، وأرجو أن تغفروا لي ما فعلت مهما وجدتموه حقيرًا أو وضيعًا."

الذنب

وبدأ الرجل يقص علينا حكايته العجيبة.

الاسم راغب عبد الغني، كان يومًا ما رجل أعمال ثريًا جدًا، كان زوجًا وأبًا مثاليًا أمام الجميع، ولكنه كان أسيرًا لشهواته ورغباته الدنيئة، فكان يبحث عن ملذات الدنيا المحرمة بين أحضان البغايا في البارات والحانات الليلية، ويتنقل بين الساقطات من النساء حتى وقع أسيرًا في شباك أفعى لعوب بجسد أنثوي.

كانت غاية في الجمال والدلال، وكأن الدنيا بأكملها قد ألتفت حول خصرها، والجنان الخضراء قد نبتت من عينيها، والصحاري المديدة أصبحت بشرتها.

كانت له فتنة باسم "فاتن"، لذلك فإنه كالمسحور قد لزم مضجعها وشرع يغدق عليها من أمواله بلا وعي كي ترضى، فاشترى لها ذلك الملهى الذي كانت تعمل به وأرضًا وفيلا، وقد أهمل جانبًا كبيرًا من عمله لأجلها، فباع أملاكه وخسر تجارته وهو شبه مغيب، حتى وجد نفسه على مشارف الإفلاس.

وبدلًا من أن يخاف على أسرته وسمعته، خاف على عشيقته أن تهجره وتنفر منه بسبب قلة الأموال. وعلى الرغم من أنها

قد حملت منه سفاحًا، إلا أنها رفضت عرض الزواج وأصرّت على الإجهاض. أما هو فقد أقدم على أبشع الأفعال التي يمكن أن يفعلها بشر، عندما قام بإحراق إحدى منشآته للهروب من شبح الإفلاس، ولطلب تبرعات لتلك المنشأة التي لم تكن سوى مدرسة خاصة يمتلكها، وتم اختيارها لاستمالة عطف المجتمع.

وبينما هو مقدم على ذلك الأمر، كان له أخ يطالبه بحقه من ميراث العائلة الذي سلبه راغب. أراد التخلص من شقيقه في ذلك الحادث أيضًا.

وبالفعل، راح ضحية هذا الحادث الكثير من الوفيات، من بينهم شقيقه والعديد من الإصابات. وعندما أُدين هو بفعلته وأنه أصبح من العدالة هربًا، توارى عن الأنظار، فبدأ يتعاطى المخدرات حتى أصبح يتعاطى أي شيء يمكن أن يتحصل عليه، إلى أن وصل لمرحلة نبش القبور وسرقة عظام الموتى وطحنها وشمها، وأصبح غير قادر على فعل أي شيء إلا التسول وربما السرقة.

كنت أشعر بمزيج غريب من الاحتقار والاشمئزاز والغضب في آن واحد تجاه ذلك الرجل.

ما هذا العقل الفاسد الأحمق الذي يودي بصاحبه من النجاح والثراء إلى الإجرام والضياع؟! وما كمية الشرور الكامنة في تلك النفس البشرية إن أرادت الشر حقًا؟! شرور أودت بصاحبها إلى القتل بأبشع الطرق "الحرق"، وقتل أطهر نفوس على وجه الأرض "الأطفال"، وتدمير حيوات كثيرة من أجل شهوة زائفة زائلة.

ولكنني رغم كل هذه المشاعر السلبية والمقت الرهيب لذلك الـ"راغب"، ألا وإن كان بداخلي شعور بالعاطفة والشفقة عليه. ربما تكون تلك الشفقة نتيجة نهايته الحتمية الذي هو مقبل عليها. ذلك المسكين أسير النفس الأمارة بالسوء وذليل الشهوة والهوى.

نهاية مأساوية قد يلقاها في الدنيا وفي الآخرة من بعد.

وهنا انتبهت لذلك الشعور والدهشة تساءلت من خلاله حينها: لماذا أنا؟ ولماذا هو؟

فلقد كان هذا الرجل هو السبب الرئيسي لكل ما حدث لي ولمن قابلتهم. فبسببه قد أصبت أنا بتلك الإصابة التي أحالتني إلى المعاش وأقعدتني في المنزل، وبسببه حدثت إصابة ذلك

الشاب المسكين رشدي الذي ضاع مستقبله واحترقت أحلامه، وهو الذي ضحى بحياته من أجل أناس لا يعرفهم.

وكيف هو الفارق بين هذا وذاك؟ هذا المدمن المستهتر عبد الشهوة وذاك البطل الشهم.

أحدهم قرر بدم بارد القتل وحرق الأطفال الأبرياء وصلة الرحم، أما الآخر ودون تردد قرر التضحية بكل شيء مقابل إنقاذ أرواح لا ذنب لها.

وبالطبع كان ارتباط راغب بـ"فاتن" تلك المتسولة اللعوب التي قابلها منذ أيام له وقع نفس التساؤل: لماذا أنا؟

لماذا يتسنى أن أقابل كل هؤلاء؟ هناك ما يربطني بهم بالفعل، ولكن ما الغرض من كل ذلك؟

ما المراد وما المقصود؟

دخلت غرفتي بعد ليلة شاقة جدًا، خلعت عني ملابسي واستحممت وارتميت على فراش، كانت كل عظامي تئن وتشكو من الألم، وقد بدأ يزول أثر تلك المسكنات التي تناولتها في المشفى كي أستطيع الصمود كل هذه المدة. وبزوال أثرها يبدأ الألم في استعادة نشاطه من جديد ليضربني في كل موجع بقوة.

أما عقلي فبدا عاجزًا عن بذل أي مجهود بعد كل ما حدث، ولذلك وبرغم كل هذه الآلام، غفوت في نوم عميق، ولكنه كان نومًا مليئًا بالأحلام والكوابيس غير المنتظمة أرهقت نومي بشكل مرهق.

في الصباح تناولت ما سنح لي من طعام، وجلست أتصفح الجرائد وأقرأ وأستمع إلى الأخبار في المذياع وأشاهد التلفاز بلا تمييز لما أفعل. كنت أفعل كل هذه الأشياء لكي لا أخرج من غرفتي.

وعندما اقترب المساء بدأت أدون ما حدث، وحاولت ترتيب وتنظيم تلك الأحداث بعد ربطها ببعضها البعض، إلى أن حان الموعد الليلي للحفل المنتظر الذي كنت قد أهملته ليلتين متتاليتين. وبما أنني كنت شارد الذهن ومشتت الأفكار بالإضافة إلى التعب والإرهاق والألم، فلم أتمكن من الاستمتاع بتلك السهرة وغفوت قبل أن تنتهي.

الدرويش وأنا

في اليوم التالي، أحسست برغبة ملحة في الخروج وزيارة راغب، فتوجهت إلى المستشفى وقابلت ذلك الطبيب، فأخبرني بأنهم قد أرسلوا راغب إلى مصحة متخصصة في علاج حالات الإدمان ومختصة في التعامل مع ذلك الفيروس المرعب الذي أصابه.

أخذت عنوان تلك المصحة وتوجهت إلى هناك، وقابلت المدير، ولكنه أخبرني بأن زيارة ذلك المريض غير مسموحة حاليا.

سرت هائما في الشوارع والطرقات، لا أعرف أين أذهب ولا كيف أسير، حتى أرهقني السير الكثير. انتبهت إلى موقعي الخالي، فوجدتني، ودون أن أدري، واقفا في ساحة مسجد الحسين -رضي الله عنه-.

أحسست بأنني قد أرسلت إلى ذلك المكان لغرض ما، ولكنني لا أكن أعلم لماذا جئت إلى هنا ولا أدري ماذا سأفعل. ظللت واقفا لفترة غير قليلة، ناظرا إلى السماء فوق مئذنة المسجد.

وهنا فتق إلى ذهني مشهد ذلك الدرويش الذي وكزني ليلة المولد، فتبسمت لذكراه التي حلت بخاطري. وهنا شعرت بنفس الوكرة مرة أخرى، فأوهمت عقلي بأنني ما زلت أتخيل ليس إلا.

ولكنني شعرت بوكرة أقوى من سابقتها الأولى، فالتفت خلفي فرأيته. كان هو ذلك الدرويش بنفس هيئته السابقة. أخذتني الدهشة قليلا، إلا أنني كنت شبه مستعد لهذه المفاجأة.

ابتسمت له بشيء من التودد وقلت له متسائلا:

"أخبرني! ماذا أفعل هنا؟".

طرحت عليه ذلك السؤال وأنا واثق تمام الثقة من أنه يملك الإجابة عليه. فوضع كفه بالمسبحة على كتفي وأجاب بمكر:

"وكيف لي أن أعلم بذلك! فلست أنا من جئت لأجله".

تعجبت من إجابته تلك، فكلماته هذه دبت في نفسي وكأنني أعلم بالفعل جئت لمن ولماذا. هممت أن أسأله ثانية، ولكنه أردف في حديثه قائلا، وهو يشير إلى السماء:

"الأفضل أن تسأله هو، فهو من يعلم كل شيء".

أدركت مقصده بذلك وهززت رأسي متفاهما، ولكنني تابعت كلماته تلك بقولي له:

"ولكنني تذكرتك! وخطرت بأفكاري قبل أن أراك، فمن أنت بحق؟".

ضغط على كتفي وقال لي بصوت عميق:

"أنا؟! أنا... أنت!".

وأغمض عينيه متابعا بشيء من التقمص:

"حالي وحالك في الرواية واحد

ما القصد إلا العلم واستعماله".

لم أفهم مقصده، ولكنني شعرت بوقع إجابته في فؤادي مما أراح نفسيتي. هممت أن أطرح عليه سؤالا آخر، ولكنه فاجأني بنظرة طويلة إلى السماء، كأنما يرى أحدا ما، مما جعلني أنظر أنا الآخر إلى السماء مثله لعلي أرى ما ينظر إليه. فلم أر شيئا مريبا في السماء، فرجعت البصر إليه مرة أخرى أسأله، ولكنني لم أجده بجواري، لم أجده مطلقا، فلقد اختفى فجأة.

لم أتعجب من ذلك، فلم تكن تلك هي المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك الأمر. فانتظرت قليلا وأنا أنظر خلالها نظرات متقطعة إلى السماء.

وفي المساء، حان لقائي اليومي مع سيدة الغناء العربي، وكنت أستمع لها ولكلمات الرقيق المحب أحمد رامي، وأنا شارد

الذهن لا أقوى على استرجاع الذكريات، أما هي فلم تكف عن محاولاتها المستمرة لإرسالي إلى الماضي:

"أول عينيا ما جت في عينيك... عرفت طريق الشوق بنا

وقلبي لما سألته عليك... قالي دي نار حبك جنة

صدقت قلبي باللي قالولي... لكن غرامك حيرني

وليل بعادك سهرني... تجري دموعي وأنت هاجرني

ولا ناسيني ولا فاكرني...

وعمري ما أشكي من حبك... مهما غرامك لوعني".

يا لتلك الكلمات المرسلة، وحالي كمثل حال محبيها. كل منا يرى أنها تخاطبه هو وتشدو له وتغني به وحده.

وقعت أسير الهيام والعشق، وقذفت بي مشاعري تلك إلى الماضي، وإلى زوجتي في أيام صباها. تلك الرقيقة الحالمة بخصرها النحيف وشعرها الأسمر الحالك كليل العاشقين، تزينه دائما بقطع فضية تشبه النجوم. أما وجهها فكان كوجه القمر ليلة تمامه. ذلك الوجه المضيء الناعم الملمس يكسو جبينه حمرة خجل، وبه طابع الحسن الذي يبدو كفوهتين لبركانيين حين تبتسم هي، فيذيبان قلبي بتلك الحمم النارية.

وتلك العينان الواسعتان السمراويتان وسط صحراء من الثلج الأبيض، يتوسطهما أنف رقيق يعلو شفتين مرسومتين بريشة أعظم الفنانين. فتذكرت أول ما رأيتها. حين لم أتمالك مشاعري، فوقعت في العشق والهيام. اغرمت حتى ظننت أنني قد سحرت أو مسني جان.

لقد أصابني سهم كيوبيد في مقتل، فلم أعد أنا أنا. وأخذتني قدماي إليها، وتسمرت أمامها، حتى إن وجنتيها اصطبغتا بحمرة خجل، فبدت أشبه بالورد الأحمر البلدي. لم أدر ماذا حدث لي وماذا حل بي حينها، إلا أنني أحببت.

أيقظتني لفحة من نسيم هواء الصباح العليل، هواء بارد يثلج الصدر، معلنا قدوم فصل الشتاء. فوجدت أنني قد غفوت في شرفتي وأنا على حالتي تلك، ولم أتبين هل كانت تلك سرحة أم أنها كانت الأحلام.

لماذا جالت بخاطري الآن ذكرياتي مع زوجتي؟ لم أطل كثيرا، فدونت كل ما أحسست أو حلمت به قبل أن أنساه.

تناولت وجبة الإفطار بشيء من النشوة والنشاط، وطالعت الصحف اليومية، وخرجت من غرفتي أتنزه في ذلك الطقس الشاعري. استقللت نفس الرحلة التي اعتدت عليها من المترو،

حتى إنني كنت قد أقمت علاقات وصداقات مع محصلي التذاكر وأفراد الأمن وبعض الراكبين الذين يترددون بصفة شبه مستمرة. وصلت لمرحلة أنني أصبحت أستعلم عن بعضهم في حال لم أرهم يوما.

شتاء القلوب

هذا اليوم لم أكمل الرحلة لنهايتها كما تعودت، بل أنهيتها في إحدى المحطات بمنطقة وسط البلد القريبة من كورنيش النيل. إن هذا البلد لمزيج عجيب من الجمال والقبح، والحضارة والتخلف. بلد واحد به كل شيء؛ الأغنياء بغناهم الفاحش، والفقراء بفقرهم القاتل، ومتوسطي الحال بين هؤلاء وهؤلاء. يمكنك أن ترى سيارة رينج روفر بلونها اللامع تسير بجوارها سيارة فيات ١٢٥ مدخنة ومتعددة الألوان والصدمات، وسيارة دايو أو فيرنا بين هذه وتلك.

قاربت بسيري إلى كورنيش نهر النيل العظيم، ذلك الشريان الساري في قلب مصر وقلب كل مصري. بدأت قطرات المطر تطبع قبلاتها على الخدود والرؤوس. ولكم أحببت ذلك كثيرا وفرحت به كما كنت فرحا وأنا طفل أجري وأتغنى: "يا مطره رخي رخي". كنت قد استعدت جيدا لذلك الطقس بملابس ثقيلة، ولكنني وسط كل سعادتي تلك أحسست بنغزة في قلبي حينما رأيت مشهدا قد آلمني كثيرا.

كان هناك غلام صغير في عامه الخامس عشر يجلس على أحد الأرصفة، وأمامه صندوق خشبي به حمالة أكتاف عليها بضعة مناديل ورقية وقداحات (ولاعات). كان هذا الغلام يرتدي ملابس صيفية خفيفة ويرتجف من البرد. راقبته قليلا وهممت أن أذهب إليه. وحينما اقتربت منه، رأيت سيدة يبدو عليها آثار الفقر والتعب، وتحمل على رأسها قفصا خشبيا به بعض الخضروات. تحدثت مع ذلك الغلام بحديث تسنى لي أن أسمعه. سمعتها تقول بعطف شديد أقرب إلى الرجاء:

"هيا بنا يا ولدي نعود إلى الدار. إن ذلك الطقس سيئ للغاية، وأنت لن تتحمل ذلك."

وجدت أن الغلام قد توقف عن الارتعاد أمامها وبدا متماسكا، فحدثها قائلا:

"كلا يا أماه. لن أعود الآن، اذهبي أنت إلى إخوتي. أما أنا فسأبقى حتى أنتهي من البيع. أما عن هذا الطقس، فأنا أعشقه كما تعلمين ولا أشعر مطلقا بأي برودة... وانظري إلى بنفسك."

نظرت له السيدة بعيون دامعة، ولكنها احتضنته ودعت له بالرزق والبركة والشفاء، ورحلت عنه. أحسست بالخجل من

نفسي. كيف نسيت أن هناك أسر تعاني من ذلك البرد القارس ولا تملك ما يحميها؟ ومن قبل البرد، تعاني من الجوع والفقر والمرض.

أخرجت كل ما في جيبي من أموال وذهبت إلى الغلام الذي عاد للارتعاد ثانية بعدما رحلت أمه، فابتعت منه كميات من المناديل الورقية والقداحات. كان قد أخبرني بثمن ما ابتعته، فأعطيته ضعف ثمنها. ولكنه استوقفني قبل أن أرحل عنه وأعاد لي مبلغا من المال وهو يخبرني أن هذا يزيد عن ثمن ما اشتريته.

أخبرته أنني أعلم ذلك وأرغب بأن يأخذ ذلك المال، فرفض بشدة وقال لي معتذرا:

"أتأسف يا سيدي. أنا لا أقبل التسول ولا أحصل على مال بغير مقابل."

تعجبت بأخلاقه، فأخبرته بأنني سوف أبتاع ببقية المال أشياء أخرى. أعطاني ما طلبت بالفعل، وأخذتهم ورحلت عنه، ولكنني توقفت بعيدا أراقبه.

بعد قليل، وجدت أن هناك بعض الأشخاص يفعلون مثلما فعلت معه بطرق وأساليب مختلفة، ولكنهم في النهاية

يقومون بالشراء منه كما اشتريت أنا. انتهى الغلام من كل بضاعته، فأخذ ربحه سعيدا ورحل.

تابعته وهو يسير حتى وصل به المطاف إلى كشك متوسط، فوقف أمام بابه الجانبي وتحدث مع صاحب ذلك الكشك، ثم أعطاه جزءا من المال. كنت قد اقتربت من الكشك كثيرا حتى أستمع إليهم. سمعت صاحب هذا الكشك يقول للصبي:

"غدا -بإذن الله- ستجد كل ما طلبته يا بني."

رحل الغلام وتابعته حتى وصل لبيت قديم متهالك مكون من الخشب وصفائح الصاج، وكانت مياه الأمطار قد غمرت مدخله. دخلته فوجدت هذا الغلام يقوم بجمع بعض الأحجار ويرصها أمام البيت ليصنع جدارا صغيرا يعزل به المياه.

أسرعت عائدا بعدما علمت مسكن ذلك الغلام، وكنت مستغرقا في التفكير بكيفية مساعدة هذه الأسرة. وفي الطريق توقفت عند ذلك الكشك محدثا صاحبه عن ذلك الغلام.

عزة النفس

أخبرني صاحب الكشك أن كل ما يعرفه عن ذلك الغلام أن اسمه "صالح"، وأنه يأتي إليه كل صباح ويأخذ بضاعته ليبيعها ويأتيه بثمنها بعد أن يبيعها، وأنه يقوم بمساعدة أمه الأرملة في تربية إخوته اليتامى بعدما توفي والده. وأخبرني أيضًا أن "صالح" يأبى أي مساعدات مادية ما لم تكن من عمله، وغير ذلك يعتبره تسولًا، لذلك فإن هناك بعض فاعلي الخير قد اتفقوا مع صاحب الكشك بأن يعطي بضاعته لـ"صالح" بأقل من ثمنها بكثير كمساعدة غير مباشرة.

وددت أن أعرف الكثير عن هذا الغلام، ولكن صاحب الكشك أخبرني أن من يعرف ما أريده هو الشيخ خطيب المسجد بالمنطقة، وهو متواجد يوم الجمعة فقط وقت الصلاة لإلقاء الخطبة، أي أنه سوف يكون متواجدًا بالغد بمشيئة الله. شكرته على تلك المعلومات وعلى مساعدته لذلك الغلام الصالح ورحلت.

وأثناء عودتي ظللت أفكر بشدة في حال ذلك الغلام "صالح"، ودرأت في رأسي الأفكار والتخيلات حول قصة هذا الغلام وأهله، وفي كل مرة كنت أزداد إعجابًا بتلك الأخلاق الراقية لهم، فهما يرفضان أي مساعدات ما لم يكونا يستحقانها بحق، وهذا دليل على رقي أخلاقهم وعفة نفوسهم وعزتها. أما طريقة التحدث بين الغلام وأمه فهي دليل أكبر على تقدم المستوى التعليمي له وحسن تقديره للمسؤولية الملقاة على عاتقه، وهو نتاج التربية السليمة.

وصلت إلى غرفتي وأنا مرهق للغاية من كثرة التفكير، فقد شغلني كثيرًا ذلك الغلام، وانتابني شعور جارف بأنه يحمل وراءه الكثير والكثير. فعزمت الأمر على معرفة قصته وإيجاد وسيلة لمساعدته دون أن يرفضها. جلست أحتسي قهوتي وأنا ملتحف، أدون كل شيء حدث في هذا اليوم، وكان الطقس يحمل برودة مميزة لتلك الآونة من العام مع صفاء ونقاء فلا توجد أي آثار للأتربة أو الأدخنة.

اتجهت في تدويني لأحداث اليوم إلى الوصف التفصيلي لما أحسست به من متعة ونشوة بذلك الطقس العجيب وبين اهتمامي وإعجابي بذلك الصبي، وإن كنت ما زلت مصرا على

أنني أعرفه من قبل أو قد رأيته مسبقًا، ولكنني لم أستطع التذكر متى وأين حدث ذلك.

انتهيت من التدوين لأحداث اليوم، وسجلت ما سأفعله بالغد، وكان من أهم تلك الأعمال هو لقائي بذلك الشيخ ومعرفة ما وراء ذلك الصبي وما حل بأهله.

مر الوقت سريعًا وحانت سهرتي المعتادة مع عشقي الأول الست أم كلثوم، فتجهزت جيدًا لسهرة الليلة، جالسًا على أريكتي ملتفًا بغطائي الثقيل، ناظرًا إلى زجاج شرفتي الذي تجمعت عليه بضع قطرات من الماء المكثف نتيجة فرق درجات الحرارة بين الداخل والخارج. وبجانبي السبرتاية مشتعلة وحولها عدة كنكات والأقداح المقلوبة، وكانت نسائم الشتاء تضفي لتلك الأجواء سحرًا خاصًا. والآن يبدأ حفل الليلة ويبدأ قرع الموسيقى الحالمة، فجعلتني أغط في استرخاء تام وأنا أستمع للست تشدو أغنيتها الرائعة "حيرت قلبي معاك" من كلمات الرقيق أحمد رامي.

"حيرت قلبي معاك.. وأنا بداري وأخبي

قُلي أعمل إيه وياك.. ولا أعمل إيه ويا قلبي

بدي أشكيلك من نار حبي.. بدي أحكيلك ع اللي بقلبي

وأقولك ع اللي سهَّرني.. وأقولك ع اللي بكاني
وأصور لك ضنا روحي
وعزة نفسي منعاني.. وعزة نفسي منعاني".

كانت كلمات مؤثرة جدًا بالنسبة لي، ومعها تذكرت ذلك الصبي الذي لم يفارق مخيلتي قط، وما يملكه من عزة نفس رهيبة قلما نجدها في هذا الزمان.

استرجعت حينها موقفي مع "فاتن" المتسولة وما كانت تفعله، وطريقة تسولها وتبرعها بما تجمعه من ذلك التسول. وهنا انتبهت إلى ذلك المشهد القصير وعرفت حينها متى سبق لي أن رأيت ذلك الصبي، فلقد كان هو نفس الصبي الذي ابتاع منه ذلك الشاب الأزهري "عابد" تلك القرحات في عربة المترو. تذكرت كيف كانت أمانته حينما أرجع المال الزائد عن حقه لـ"عابد". نعم، إنه هو ذلك الصبي.

أسرعت أقلب صفحات مذكراتي التي دونتها حتى وصلت لذلك اليوم، وكنت قد دونت أوصاف ذلك الصبي بدقة، وبالفعل كان هو. أحسست براحة نفسية وعزمت على استكمال ما بدأته. انتهى الحفل لكوكب الشرق، فاحتضنت فراشي وأنا ما زلت ملتحفًا وغفوت سريعًا.

المعرفة

أشرق صباح يوم الجمعة بسماء صافية وجو نقي وشمس حانية فتجهزت جيدًا وخرجت سريعًا لكي ألحق بصلاة الظهر في ذلك المسجد ومقابلة ذلك الشيخ.

وصلت إلى المسجد ودخلته مبكرًا وصليت ركعتين وجلست أنتظر اعتلاء الخطيب للمنبر، وعندما حان وقت الأذان، ومن بين المصلين تقدم صبي بخطى واثقة إلى مكبر الصوت وبدأ يؤذن بصوت عذب دافئ.

كان "صالح" هو ذلك المؤذن، اقشعر بدني من عذوبة صوته وطلاوة أدائه وانبهرت من تمكنه الدقيق للنطق وسلامة مخارج حروفه، بعدها قام شيخ كبير ذو وجه أبيض منير به حمرة ولحية ما بين الشيب والسواد تزيد من وقاره، بعد انتهائه من الخطبة وإقامة الصلاة تقدم "صالح" مرة أخرى ولكنها هذه المرة للصلاة بنا وتلا علينا آيات من الذكر الحكيم بصوته الرائع وحفظه السديد.

بعد الصلاة انتظرت حتى صار المسجد شبه خالٍ فاقتربت من الشيخ وجلست أمامه وحييته، أخذت أسأله عن بعض الأمور الخاصة التي لربما أعرفها وإن كان أهمها هو ما كانت تفعله "فاتن" من تسول وتبرع، ولكنه بدلًا من أن يجيبني عن ذلك الأمر فاجأني بقوله متسائلًا:

"أهذا هو ما جئت لأجله؟ متى ستسألني عن مبتغاك الذي جئت من أجله؟"

نظرت له بتعجب شديد وقبل أن أرتب كلماتي وجدته يتابع قوله:

"هل تعتقد أنك قادر على ما لم يقدر عليه الكثير ممن سبقوك؟"

كنت ما زلت مرتبكًا من وقع المفاجأة ولكنني أجبته قائلًا:

"عن ماذا تتحدث يا شيخنا؟ أنا لا أفهم مقصدك!"

ابتسم وهو يشير بنظره إلى نقطة بعيدة من خلفي وقال لي متسائلًا:

"اسمي الشيخ منجي، وهذا هو مقصدي! أليس هذا هو مقصدك أنت أيضًا؟"

نظرت خلفي حيث أشار فرأيت صالحًا وهو يقوم بجمع بعض الحصائر التي كانت مفروشة خارج المسجد للصلاة، وهو يطويها ويعيدها إلى مكانها المخصص لها.

فأرجعت بصري إلى الشيخ "منجي" مرة أخرى وقلت له:

"أود أن أعرف ما هي قصته... فلقد رأيت منه الكثير مما أثار إعجابي به ووددت أن أقدم له المساعدة."

أطرق الشيخ "منجي" بنظره إلى سبحته بين أصابعه وقال حزينًا:

"ليس كل ما يتمناه المرء يدركه... ربما جئت متأخرًا، ولكن... إليك ما تريد."

وبدأ الشيخ بسرد قصة صالح وأهله بقوله:

"أن الأمر كله يرجع إلى والده... وهو قد ورث من والده ما ورث."

تابع الشيخ "منجي" يقول:

إن والد "صالح" كان رجلًا أزهريًا يسمى الشيخ "عابد" وكان تلميذًا لي، وقد كان مهتمًا بـ"صالح" منذ أن بدأ النطق وقد علمه النطق السليم وأبدي "صالح" استجابة كبيرة للتعلم وقد أتم حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ العاشرة من عمره.

وكان الشيخ "عابد" يقول دائمًا عن "صالح":

"هذا ليس ولدي... بل إنه عملي الصالح الذي سوف أتركه."

ولكننا جميعًا صدمنا بخبر مرض "صالح" بمرض السرطان اللعين، ولكن ذلك الأب المكلوم كان قويًا ومؤمنًا وتقبل الأمر صابرًا ومحتسبًا وكان يقول:

"أن الله علم أنني أحببت هذا الولد فأراد أن يختبرني فيه... وإنني لصابر على هذا الاختبار."

ولما اشتد المرض بالطفل وبدأ في أخذ جلسات الكيماوي، كان الأب يسعى جاهدًا لتوفير العلاج له حتى استنفد كل ما يملك... وكان يرفض أي مساعدات ما لم يكسبها من عمله.

ولكنه قرر أن يتجه إلى ميراثه القديم الذي سلبه منه شقيقه... إلا أن شقيقه هذا أبى وتملص من إعطائه حقه في الميراث وأخبره بأنه ليس له أي ميراث لديه.

حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي ذهب فيه "عابد" إلى شقيقه في مدرسته الخاصة التي يمتلكها عن موعد سابق قد وعده إياه شقيقه... ولكنه ذهب ولم يعد بعدها من هناك مطلقًا.

فقد اشتعلت النيران بتلك المدرسة وكان الشيخ "عابد" بداخلها وتوفي إثر إصابات كثيرة تعرض لها... وبعدها قامت الأم برعاية "صالح" واستكمال ما أراده الأب بنفس الطريقة التي كان يرجوها لولده... حتى لم يعد لديها ما تملكه وعندها صار "صالح" صبيًا يافعًا وتفهم حقيقة مرضه وموقف والدته وإخوته الصغار فقرر التوقف عن العلاج باهظ الثمن وتخلى عن استكمال دراسته وبدأ في مساعدة والدته بالعمل... وكان مثل والده يأبى أي مساعدات.

فهناك الكثير من فاعلي الخير قد عرضوا عليهم المساعدات بتحمل تكاليف العلاج وتوفير مسكن ملائم... ولكن الرد دائمًا كان الرفض،

إلى أن قالها "صالح" صريحة لا رجعة فيها:

"أنا عمل والدي فقط... ولا أريد إشراك أي أحد آخر في عمل والدي... وليكن أجري كله لوالدي."

ولكننا لم نرضَ بالمشاهدة فقط دون أن نفعل شيئًا... فقررنا أن نساعدهم بطرق مختلفة وغير مباشرة... ولعلك علمت ذلك ممن دلك علينا.

هل تستطيع؟

كنت أستمع للشيخ "منجي" وأنا أرتعد مع كل كلمة جديدة ينطقها، فكان ذلك الحديث هو أغرب وأعجب ما سمعت على الإطلاق. وكان الأعجب من ذلك هو ترابط الأحداث ببعضها البعض هكذا، فهل يعقل أن يكون ذلك الشاب الأزهري الذي قابلته في قطار المترو وفي مولد سيدنا الحسين هو نفسه والد هذا الصبي؟ ولكن كيف هذا، فهذا الشخص ليس على قيد الحياة؟ وهنا أحسست برهبة عارمة وحاولت استرجاع ما دار بيني وبين الشاب "عابد" ذلك. ولم أتردد في إخبار الشيخ "منجي" بما حدث لي في الأيام الماضية وبأنني قد قابلت الشيخ "عابد" وأخاه "راغب" وفوجئت بردة فعل الشيخ "منجي" بالابتسامة بدلا من الدهشة. وما أدهشني أنا بشدة هو ذلك السؤال الذي طرحه علي الشيخ "منجي" قائلا:

"والآن... هل لديك القدرة على العفو والغفران عمن آذاك؟ أم أنك تريد الانتقام لما حل بك؟".

كان ذلك السؤال بمثابة الصدمة لي ولم أقوى على الإجابة عنه، فكل ما حدث لي وكل ما رأيت وعانيت ومن قابلت، كانوا على صلة قوية بذلك الحادث الذي دبره ذلك "راغب".

أثر ذلك السؤال في نفسي الكثير والكثير من المشاعر والأحاسيس المتضادة.

كان النهار قد انقضى وأنا أستمع للشيخ "منجي" إلى أن أخبرني برغبته في الرحيل، وأبلغني بأنه يتواجد دائما في كل يوم جمعة بنفس المسجد.

عدت إلى غرفتي تلك الليلة بمشاعر متضاربة متناقضة وحزن دفين، دونت كالعادة أحداث ذلك اليوم بقلم مهزوز وأنامل مرتعشة، وكان كل ما يشغل تفكيري هو كيفية مساعدة هذا الصبي دون أن يرفض هو المساعدة.

في صباح اليوم التالي ابتعت فطوري وجرائدي اليومية وجلست أتصفح الجرائد لا أبالي لتلك الأخبار المدونة، حتى انتبهت لإعلان صغير في أحد أركان تلك الصحيفة. كان إعلانا من إذاعة القرآن الكريم يعلن عن مسابقة لحافظي القرآن الكريم أصحاب الأصوات العذبة.

وكانت هناك جوائز عينية ومادية للفائزين بها.

خطرت لي الفكرة سريعا فتوجهت لمبنى اتحاد الإذاعة والتلفزيون "ماسبيرو" واستعلمت عن تلك المسابقة المعلنة. وبالفعل تقدمت للمسابقة باسم "صالح عابد" وعنوانه، وكان هذا اليوم هو آخر أيام التقدم للمسابقة. وعلمت أن الاختبارات والاستماع إلى المتسابقين سيتم على مدار أسبوع من اليوم.

قابلت السيد المسؤول عن تلك المسابقة وشرحت له موقف "صالح"، وأبدي هذا المسؤول استجابة جيدة وقد اتفق معي على جعل تلك المسابقة مفاجئة لـ"صالح"، وسوف تتم الترتيبات للاستماع له دون أن يشعر هو أو أي أحد من طرفه.

وبالفعل نسقنا أن الاستماع لـ"صالح" سوف يكون يوم الجمعة المقبل في نفس المسجد الذي يصلي فيه "صالح" إماما بالناس، وسوف يسجلون قراءته وآذانه لعرضها على لجنة الاستماع والتحكيم.

مرت الأيام بطيئة حتى جاء يوم الجمعة المنشود، والتقيت صباحه بمسؤول المسابقة السيد "عوني عبد المعين" وتوجهنا مع بعض المصاحبين له إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة.

جلسنا ننتظر حتى تقدم "صالح" نحو مكبر الصوت وبدأ يؤذن وكانوا مسؤولو المسابقة يسجلون ذلك، وقد أبدوا إعجابهم بصوته. وبعدما انتهت الخطبة قام "صالح" ليؤم المصلين وتلا علينا آيات من الذكر الحكيم بصوته العذب وفصاحة لسانه وقد تم تسجيل كل ذلك أيضا. وبعد الانتهاء من الصلاة جلست بصحبة السيد "عوني" مع الشيخ "منجي" وأخبرناه بتلك المسابقة، ولكننا لمحنا دمعة ساخنة تنحدر من مقلتيه وقال لنا بصوت خافت حزين:

"أخشى أنه قد فات الأوان لذلك".

سألته ماذا يقصد بكلماته تلك فلم يجب، فأخبره السيد "عوني" بأن إعلان نتيجة المسابقة هو يوم الأربعاء القادم وأنه في حالة إن كان "صالح" هو الفائز بها فسوف يتم إعلان ذلك أثناء نقل شعائر صلاة الجمعة القادمة على الهواء مباشرة بإذاعة القرآن الكريم وسوف يتم نقل الشعائر من هذا المسجد.

الصدمة

مرت الأيام وجاء يوم الأربعاء فذهبت مبكرًا لمبنى اتحاد الإذاعة والتلفزيون لمعرفة نتيجة تلك المسابقة وكانت فرحتي عارمة عندما علمت بفوز "صالح" بالمركز الأول عن جدارة ولسوف يتحصل على جائزة مالية قدرها خمسون ألف جنيه مقدمة من وزارة الأوقاف المصرية بالاشتراك مع اتحاد الإذاعة والتلفزيون وسوف يتم تسجيل مصحف مرتل بصوته.

اتفقت مع السيد "عوني" على إعداد المفاجأة لذلك الصبي في يوم الجمعة... وبالفعل يومها قابلت السيد "عوني" ومعه معدو البرامج بالإذاعة وذهبنا إلى المسجد وبدأ الاستعداد والتجهيز لنقل شعائر صلاة الجمعة، ولكننا لم نرَ أيًّا من الشيخ "منجي" أو "صالح" وكان المسجد به عدد قليل من الحضور على خلاف ما كان في الأسابيع الماضية.

ارتبت قليلًا ولكنني كنت سعيدًا بهذه المفاجأة التي نعدها ل "صالح" وأهله... اقترب موعد الصلاة وبدأ القلق يتسرب إلى نفسي بسبب اختفاء الشيخ والصبي وبدأ السيد "عوني" يرتاب هو الآخر ويتساءل من حين لآخر عنهما ولا أستطيع أن أجيبه.

ودون أي مقدمات حدثت ضجة وجلبة خارج المسجد ورأينا حشودًا غفيرة من الناس يحملون نعشًا خشبيًا ويقتربون من المسجد... كان ذلك شيئًا نعتاد عليه عندما يتوفى أحد في يوم الجمعة، ولكن قلبي قد انخلع عندما رأيت الشيخ "منجي" يتقدم هذه المسيرة وعينيه قد اصطبغت بحمرة دامية من فرط البكاء.

وعندما رآني اقترب مني باكيًا وترك الرجال يضعون النعش في مقدمة المسجد... وأمسكني من يدي مستندًا عليها قائلًا بمرارة وحسرة:

"ألم أخبرك بأنه قد فات الأوان لذلك؟".

ارتعدت ودارت بي الدنيا وسرت في جسدي قشعريرة وبرودة قارصة، ولم أقوى على الوقوف فاختل توازني وكدت أن أقع إلا أن السيد "عوني" وأحد مساعديه قد أسندوني... فقال الشيخ للسيد "عوني":

"عذرًا يا ولدي... اجعل أحد مساعديك يؤذن للصلاة... فليس هناك من يستطيع الأذان حاليًا، فلقد توفي "صالح" بعد أدائه لصلاة الفجر ساجدًا".

لم أتمالك نفسي وانخرطت في البكاء وأنا أشعر بمزيج من الحزن والألم.

قام السيد "عوني" بإعلان خبر وفاة المتسابق الفائز بالمسابقة عبر أثير شبكات الإذاعة المصرية بأكملها.

وعندما انتهت خطبة الجمعة وقبل الصلاة مباشرة لذلك اليوم كان جميع المصليين يبكون بشدة وتناهى إلى مسامعنا ضجة في الخارج فانتظر الشيخ قليلًا لمعرفة ما يحدث بالخارج من شدة الجلبة فوجدنا أن الشارع قد امتلأ عن آخره في مشهد مهيب، وكانت السيدات يلقين بالحصائر والسجاجيد من النوافذ والشرفات للمصلين في الشارع... وافترشت الأرض كلها بالمصليين الذين جاؤوا من كل حدب وصوب لتشييع جنازة "صالح".

كانت الصلاة في ذلك اليوم حدثًا جللًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى... فلم يعد هناك موضع لقدم من ذلك الحشد الغفير.

انتهت صلاة الجنازة وسط بكاء حار من البعض وتكبيرات وتهليلات وتقدم بعض الرجال من النعش ليحملوه وكنت أنا من بينهم... ونظرت لجانبي فوجدت ذلك الدرويش الذي

قابلته في مسجد سيدنا الحسين ومن خلفنا كان السيد "عوني" وبجانبه الشاب الأزهري "عابد" وكان الشيخ "منجي" يتأبط ذراعي.

كنت أدرك أن ما أراه حينها لم يكن حقيقيًا ولكنني لم أستطع أن أكذب عيناي مما أراه... وكنت أشعر كأنني طيرٌ سابحٌ يرى ذلك المشهد من السماء وأراني حاملًا النعش والجموع الغفير تسير وسط التكبيرات والتهليلات... إلى أن وصلنا للمقابر وكانت المقبرة المخصصة لدفن الصبي مفتوحة وجاهزة ودلفنا ستة أشخاص إلى داخل القبر... أنا والشيخ "منجي" والسيد "عوني" و"عابد" والدرويش ورجُلٌ من معاوني السيد "عوني"...

ومن المتعارف عليه أن المقابر تكون حالكة الظلام من الداخل... ولكنني لاحظت هالة من الضوء تشع من داخل القبر لم أتبين مصدره وكأنه مصباحٌ غير أن هناك رائحة تشبه رائحة المسك تفوح في أرجاء القبر... وبعد أن أنهينا الدفن خرجنا ولكنني انتظرت خروج الدرويش و"عابد" فلم يخرجا... ووجدت خادم المقابر يهم بإغلاق المقبرة وهممت أن أخبره بأنهم مازالوا بالداخل إلا أن الشيخ "منجي" أمسك بيدي وعندما نظرت إليه هز رأسه قائلًا بصوت بالكاد سمعته:

"لقد انتهى الأمر هنا يا ولدي... فمن ذهب لن يعود ثانية".

لم أشعر بالوقت وأنا أقف وسط الجموع ندعو خلف الشيخ "منجي" الذي كان أقرب إلى البكاء... وعندما انتهينا بدأت الجموع تلك في الرحيل... كان نظري معلقًا بالقبر إلى أن وجدت الشيخ "منجي" يتأبط ذراعي ويحثني على الرحيل فنظرت له وقلت متسائلًا:

"من هم؟ وأين ذهبوا؟".

فأخذ بيدي وبدأنا نسير مبتعدين وقال لي:

"وما أدراك أنهم ذهبوا؟... فلربما نحن الذين ذهبنا... وهم الباقون".

في المساء كان الشارع مفترشًا بأكمله سرادقًا للعزاء أقامته وتكفلت به وزارة الأوقاف وكان الازدحام مبالغًا فيه بشكل كبير... وكان هناك لفيفٌ كبيرٌ من مشايخ الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف ومسؤولي إذاعة القرآن الكريم... فلقد ذاع صيت ذلك الصبي بسرعة كبيرة في السويعات القليلة الماضية... وعلم الجميع بقصته.

كانت ليلة طويلة وانتهت في وقت متأخر من الليل.

الاختيار

عدت إلى غرفتي قبيل الفجر بساعة واحدة، وكانت مشاعر الحزن تستحوذ عليَّ كل حواسي، فجلست بلا حراك على ذلك المقعد الوثير متأثرًا، فهزمني الإعياء والإرهاق بسبب المجهود الذي بذلته طيلة اليوم وليلته، فغلبني النعاس دون أن أشعر.

ولكن الأحلام والكوابيس أبت أن تتركني أنعم بنوم هادئ، فظلت تطاردني بلقطات متقطعة من حياتي وكأنها شريط سينمائي أو فيلم تسجيلي عن حياتي، انتهت بي وأنا أقف أمام قبر ذلك الصبي أنظر إلى "عابد" وكأنه يتمم إجراءات الدفن، وبعدما انتهى مما يفعله، نظر إلى وقال بصوت تردد صداه:

"الآن انتهى عملي الصالح الذي كان يمشي على الأرض".

حاولت أن أحدثه إلا أن صوتي لم يخرج، ولكنه تابع قائلًا:

"أخبره أنني قد عفوت عنه وسامحته... ولم يتبقَّ إلا أنت... فهل تستطيع أن تعفو وتسامح؟"

نظر إلى موضع ما خلف ظهري، فالتفتُّ لأرى ذلك الدرويش واقفًا يحمل هراوة ضخمة، و"راغب" يجثو على ركبتيه أمامه مستسلمًا. قال الدرويش لي:

"هل أفعلها؟ أم تعفو عنه؟"

هززت رأسي لا أعلم بما أجيبه، وقبل أن أحدثه التقت عيني بوجه الدرويش لأول مرة أتبين ملامحه، فصعقت بشدة مما رأيت، فقد كان يحمل وجهي أنا، فعجزت عن النطق تمامًا. فتابع الدرويش قائلًا وهو يرفع الهراوة عاليًا:

"ما ستقرره... سأفعله... فأنا أنت، وأنت أنا"

وفجأة انطلق ضوء شديد لم أستطع الرؤية من شدته، فأغمضت عيني بقوة وحاولت مرارًا أن أفتح عيني مرة أخرى حتى نجحت في ذلك، فكان ذلك هو ضوء الشمس، فاستيقظت من نومي.

اعتدلت وأنا ألهث بشدة، وكانت عيناي ما تزالان تشعران بذلك الضوء الشديد، كان النهار قد انتصف، فاغتسلت وجلست أدون ما حدث وأنا أرتشف قهوتي بشكل متسارع كي لا أنسى شيئًا.

وبعدما انتهيت، ارتديت ملابسي وخرجت وأنا أعلم إلى أين أتوجه هذه المرة، فكانت وجهتي إلى المصحة التي بها المدعو "راغب"، وعندما وصلت إليها وجدت سيارة إسعاف وسيارات الشرطة وحالة من الهرج والمرج تملأ المكان.

ومن بين الوقوف، رأيت مدير تلك المصحة الذي رآني بدوره، وكان يختتم حديثه مع أحد رجال الشرطة، فانتظرت حتى رحل رجال الشرطة وسيارة الإسعاف، فأشار إلى مدير المصحة أن أقترب، فذهبت إليه، فأخبرني بأن "راغب" قد انتحر صباح ذلك اليوم ولكنه ترك رسالة، وأعطاني المدير هذه الرسالة وعزاني وتركني وحيدًا. فتحت تلك الرسالة وكانت مدونة بخط سيئ للغاية يعبر عن حالة صاحبها، وكان نصها كالآتي:

"أرجو أن تغفر لي ما سببته لك من أذى... فلم يتبقَّ لي من أحد يمكنه السماح والعفو والمغفرة إلا أنت... لقد علمت منذ قليل بخبر وفاة ابن أخي، فلم أرَ أمامي سوى هذا الحل لإراحة الجميع من شروري... أغفر لي وأدعُ لي".

لم يكن بداخلي أي شعور بالعطف والشفقة على ذلك الرجل مطلقًا، فهو من قتل وحرق وزنا وسرق وقطع صلة الرحم، وفي

النهاية اختار لنفسه النهاية المناسبة لحياته، فكان كمن وقع عقدًا مع الشيطان نفسه لإرساله إلى الجحيم.

تركت المكان ورحلت، فلم يتبقَّ لي سوى مكان واحد لأذهب إليه، وبالفعل اتجهت إليه مباشرة، كانت هناك قوة جذب خفية تجذبني بقوة تجاه مسجد الحسين، ولم أشعر بنفسي إلى أن وجدتني أقف بساحته الخارجية أنظر إلى قبابه. كانت ساحته شبه خالية إلا من بعض السائحين، فالتصقت بجدار المسجد وجلست مستندًا إليه وأغمضت عيني، فأحسست بمن يربت على كتفي حينها.

أفقت من سرحتي تلك وفتحت عيني لأرى ذلك الدرويش جالسًا بجواري، فسعدت كثيرًا وكأنني كنت أنتظره، ولكن الحزن بداخلي غلب ابتسامتي فتجهمت ملامحي أمامه، فأبتسم لي وقال بنبرته العميقة:

"هل فهمت الآن؟ أم أنك ما زلت تبحث عن العدم؟ لقد كان أمامك وتركته لتبحث بعيدًا".

هممت أن أسأله ماذا يقصد، فقال متابعًا:

"لا ترهق نفسك كثيرًا... فتلك هي طاقتك، وذلك هو قدرك من العلم... فلقد عرفت ما كان ينبغي لك معرفته وما يكفيك...

فاستكفِ به وعد إلى من يريدك... عد... وتعلم أن تنظر لمن حولك من موضعهم هم... لا من موضعك أنت".

هززت رأسي في حيرة وأسف، فربت على كتفي مرة أخرى وهو يقول ناظرًا إلى السماء:

"لقد أعطاك الله نعم كثيرة من زوجة، وأبناء، ومن راحة بال، وقوت يومك، وعلم يكفيك، ووقت لتستغله"

فأحمده على تلك النعم وأنعم بها... تنعم! ولئن شكرتم لأزيدنكم...

نظرت بدوري إلى السماء حامدًا شاكرًا رب العالمين بعدما فهمت مقصده، فقال الدرويش متابعًا:

"أنا أيضًا قد اكتفيت مثلك... ولكنها لن تكون النهاية... فإذا أردت أن تجدني... ابحث عن نفسك وبداخلك ستجدني".

وأطلق صيحة عالية قائلًا:

"حي"...

هززت رأسي ونظرت جواري فلم أجده وقد كنت متيقنًا من ذلك.

الحلم والحقيقة

وصلت إلى غرفتي ونمت سريعًا، وحلمت ليلتها بأنني جالس وابنتاي فلذتا كبدي وهما يدلفان إلي وكل منهما تحمل في يدها كفنًا أبيض، وتضعه بين يدي... وتهادى إلى مسامعي صوت الصبي "صالح" مؤذنًا.

استيقظت وأنا أسمع أذان الفجر بالفعل، وخُيّل إليّ أنني ما زلت أسمع الأذان بصوت الصبي "صالح"... ولم أكن أحلم حينها، فتنبهت إلى حقيقة الصوت بالفعل... فإن ذلك الأذان كان بالمذياع بصوت الصبي، وكان هذا الأذان هو نفسه الأذان الذي تم تسجيله له يوم المسابقة.

أسعدني ذلك كثيرًا وفرحت فرحة عارمة... وبعدما أديت صلاة الفجر جلست أقرأ وردًا من القرآن الكريم ودعوت لـ"صالح" كثيرًا.

ولما طلعت الشمس بدأت أجمع أشيائي من الغرفة استعدادًا للعودة إلى داري.

دلفت إلى بيتي وأنا أترقب لهفة اللقاء بعد طول الفراق، ولكنني لم أجد أحدًا بالبيت... أين ذهبت زوجتي؟ فلا بد أنهم يئسوا من البحث عني طيلة هذه الفترة، ولعلها ذهبت عند واحدة من بنتيها.

جلست على المقعد الذي كنت معتادًا الجلوس عليه من قبل... وكنت حزينًا لأنني كنت أمني نفسي بمقابلة حارة واستقبال طال انتظاره، فوضعت خدي على كفي وغفوت دون أن أشعر.

أفقت من غفلتي على صوت مزلاج الباب ينفتح... فاعتدلت في جلستي كأنني لم أكن نائمًا... وانفتح الباب ودخلت زوجتي، وفزعت بفرحة لما رأتني، ثم انطلقت نحوي باشتياق ولهفة، فلم تمهلني الوقت يسمح لي بالوقوف وارتمت بين أحضاني وكأنها طفلة وجدت أبويها.

كانت دافئة حانية رقيقة مثلما كانت عندما رأيتها أول مرة ونحن شباب، وإن كانت بعض التجاعيد قد خطت خطوطًا في وجهينا معًا.

وكانت فرحة كما لو أنها فرحة طفلة بملابس العيد الجديدة، وكانت الدموع تنهمر من مقلتيها كزخات المطر في ليلة

شتوية... وتخلل البكاء بعض عبارات اللوم والعتاب على هذه الفترة العصيبة، وكنت أرد عليها بالاعتذارات حتى انتفضت انتفاضة قوية جعلتها تبتعد عن أحضاني وتنظر لي متفحصة، فسألتني وهي تنظر في عيني:

ما بك يا حبيبي؟ أخبرني ما حل بك؟

أشرت لها إلى ما خلفها فالتفتت بسرعة... فكانت ابنتانا واقفتين في ردهة المنزل، وكل واحدة منهما تحمل في يدها كفنًا أبيض.

كان المشهد مشابهًا لما رأيته في منامي ليلة أمس، فارتعبت بشدة وقلت لزوجتي مرتبكًا:

"أكفان... لمن... هذه... الحلم..."

كانتا الابنتان تبدوان مرهقتين، وزاد على إرهاقهما هذا صدمة عندما رأوني في هذه الحالة المزرية بعد هذه الفترة.

وقبل أن يستفيق أحد من هذه الصدمة لاحظت وجود حركة داخل هذه الأكفان التي تحملانها... فتركزت عيناي عليها، ودون أي مقدمات انطلق صوت بكاء طفل رضيع... وزاد البكاء من الحركة داخل هذه الأكفان... وهنا أدركت أن هذه لم تكن أكفانًا قط، بل هما طفلان.

وهنا دخلت حفيدتاي يهرولن تجاهي وارتمين بين ذراعي وهن يتغنين بكلمة: "جدي... جدي".

أما ابنتي الكبرى "فاطمة" فقالت وهي تضحك بوهن تداعبني أنا وأمها:

"ما كل هذه الرومانسية يا أبي؟ وأين كانت هذه الأشواق من قبل؟"

ابتسمت زوجتي بخجلها المعهود وأشاحت بوجهها بعيدًا عن ابنتها. فقالت لي حفيدتي وهي سعيدة:

"أنظر يا جدي... لقد أنجبت أمي وخالتي معًا."

نظرت بسعادة إليهن وفتحت لهن ذراعي فاقتربن مني، ووضعت كل منهن طفلها بين يدي... وقبلت كل منهن يدي وجبهتي.

نظرت إلى الطفلين بوجههما الذي تملؤه البراءة والحياة... وابتسمت...

دخلا حينها صهراي أزواج بناتي وهما سعيدان، وهنا قالت زوجتي:

"لقد أنجبت "فاطمة" و"زينب" في يومين متتاليين منذ عدة أيام، وحتى الآن لم يقوما بتسمية الطفلين، والآن وبعد عودتك إلينا سالمًا فسوف تختار لهما اسميهما."

فقلت وأنا أقاوم تلك العبرات اللواتي يتساقطن من مقلتاي:

"إن هذا لفرح شديد... ولشرف لي أن أختار لأحفادي نفس الأسماء التي اختارها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحفاده من قبل... فليكن "الحسن" و"الحسين" هما اسميهما... وليباركهما الله."

بعد عدة أيام كان احتفالًا صغيرًا بمولد الحفيدين... وكنا قد عزمنا الأمر أن نجعلها ليلة ذكر... وكنت قد دعوت الشيخ "منجي" وتعرفت منه على أخبار إخوة "صالح" وأمه... وأخبرني الشيخ "منجي" بأن وزارة الأوقاف قد خصصت سكنًا جيدًا لهم وتوفير عمل محترم لـ"أم صالح" في إحدى المعاهد الأزهرية القريبة من سكنها الجديد، وإلحاق إخوة الصبي بالمراحل التعليمية المناسبة بنفس المعهد.

وقد قبلت الأم كل ذلك بعدما أقنعوها بأن ذلك هو مقابل لإذاعة الأذان بصوت "صالح" في صلاة الفجر في إذاعة القرآن الكريم يوميًا.

وبعد انتهاء ليلة الذكر توجهنا جميعًا -أنا والشيخ "منجي" وصهراي- إلى مسجد سيدنا الحسين، وقمنا بتوزيع الوجبات (العقيقة) على الفقراء والمحتاجين.

وبينما كان صهراي منشغلين بذلك، رأيت ذلك الدرويش واقفًا ينظر إلى السماء كعادته... فذهبت إليه وقدمت له وجبة من هذه الوجبات، وأخبرته بما جد لي، فبارك لي وأخذ مني الوجبة ولكنه أوقف أحد المارة وأعطاه إياها، فتعجبت له وقلت متسائلًا:

"لماذا فعلت ذلك؟... هذه لك أنت... وبإمكاني أن آتي له بغيرها."

فنظر إلي وقال بصوته العميق:

"لم تكن لي... ولم تكن من رزقي... فرزقي لم يأتِ بعد."

همّ بالرحيل ولكنني أوقفته وقلت له متسائلًا بذلك السؤال المتكرر:

"الآن يجب أن تخبرني... من أنت؟ ومن تكون؟"

فابتسم بجانب شفتيه ومال إلى أذني قائلًا بصوت يشبه صوتي كثيرًا:

"ألم تدرك بعد؟... لقد أخبرتك من قبل عن الإجابة... أنا أنت."

أمسكت به وهززته بشيء من القوة مرددًا:

"ماذا تقصد بذلك؟... أخبرني بالحقيقة الآن... أرح بعقلي يا هذا."

فأمسكني من ذراعي التي أمسكه بها وبدا وكأنه هائم في ملكوت آخر:

"الحقيقة؟ ومن أنت لتعرف الحقيقة؟

إن الطريق إلى الحقيقة يمر من القلب... لا من الرأس... فاجعل قلبك لا عقلك هو دليلك الرئيسي... واجه... تحد... وتغلب في نهاية المطاف على نفسك بقلبك."

أزال يدي ووضعها على صدري برفق وقال متابعًا:

"إن معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفتك بالحقيقة."

وهنا جال بخاطري كلمات "عابد" وترددت في ذهني:

"كلنا نبحث عن الحقيقة، ولكن الحقيقة ذاتها تختلف من منظور كل شخص، فالحقيقة لا ينطق بها لسان، بل هي ذوق ووجدان."

الحقيقة هي المعرفة المكتسبة خلال تجارب المسيرة، ومن خلال تلك التجارب التي مررت بها... وجدت أن الحقيقة الوحيدة التي تضمنها كل نفس على هذه الأرض هي "الموت."

وكلنا سنموت ولا مفر من ذلك... مهما بلغت من درجات أو سلطان... فلا بد لك أن تموت.

فكم من قبلك أناس ماتوا وكانوا يملكون الكون ويحكمونه... الأنبياء والرسل والصالحين.

"كل نفس ذائقة الموت" ولا أحد ينكر هذه الحقيقة حتى الملاحدة أنفسهم.

ربما تتمكن من إيجاد من ينكر البعث أو الحساب، ولكنهم جميعًا يقرون بحقيقة الموت الحتمية الواجبة.

"ءإذا متنا وكنا ترابًا" وهذا إقرار بحتمية الموت مِن مَن؟... من المشركين والكفار أنفسهم.

ولكي تستقبل الموت وتكون على أهبة الاستعداد له، لا بد أن تتجهز وتتهيأ له... بأفعالك وأقوالك...

وهنا أحسست بيد تربت على كتفي، فنظرت خلفي لأرى الشيخ "منجي" يخبرني بأننا قد تأخرنا ويجب علينا العودة.

فنظرت إلى موقع ذلك الدرويش فلم أجده كعادته وكأنه تبخر في الهواء. فتبسمت.

أوصلنا الشيخ إلى منزله وعدنا إلى بيتي، وطوال كل هذه الساعات وأنا ساهِم في التفكير، أبحث عن إجابة واحدة... إجابة ذلك السؤال:

"من أنا؟... من أكون؟"

من أنا؟

بعد عدة أيام مرت وأنا ما زلت في حيرة من أمري. أخبرت زوجتي بأنني أحتاج إلى العودة لخلوتي مرة أخرى، وكنت قد أعلمتهم بتلك الغرفة. وبالفعل عدت إليها مرة أخرى، عدت مشتت الذهن تمامًا. حاولت الاسترخاء في أول ليلة لي، وعاودت تلك العادة من جديد – ما بين القهوة والشرفة وسهرات الست – وكانت هي الأخرى تعاود رسائلها لي في أولى سهراتها عبر كلمات الشاعر الكبير عبد الوهاب محمد، فوجهت إليَّ أغرب تساؤل قد يوجه إلى أحد:

"اسأل روحك! اسأل قلبك!
قبل ما تسأل إيه غيرني
أنا غيرني عذابي في حبك...
بعد ما كان أملي مصبرني".

بدأت الست بالطرق على الحديد وهو ساخن، ووسط استرخائي وهيامي أخذت أتساءل بالفعل وبجدية:

"من أنا؟ ومن أكون؟".

أنا "مختار عبد الله الرحماني" من مركز الرحمانية بمحافظة البحيرة، أبلغ من العمر الخامسة والخمسين عامًا، متزوج، ولدي ابنتان فقط وعدة أحفاد. أُحيلت إلى المعاش منذ خمسة أعوام.

من أنا؟ هل هذا هو أنا بالفعل؟ وما علاقتي بكل من قابلتهم؟ وكل من عرفتهم؟ إنه لسؤال محوري ومتشعب تسألني إياه نفسي كثيرًا.

هل أنا... أنا؟ أم أنا... هم؟

هل أنا ما أردت أن أكونه؟ أم أنا ما أرادوا هم أن أكون؟

هل أنا من صنعت نفسي بنفسي؟ أم أنا نتيجة لرؤيتهم وحكاياتهم؟

هل أنا... اسمي وعنواني ووطني وعاداتي وتقاليدي؟ أم أنا في الحقيقة... أتخطى ذلك كله لأكون شيئًا جوهريًا لا يراه الآخرون؟

لكل منا لحظات تأملية يتساءل فيها: من أنا؟ ومن هؤلاء؟ وهل أنا قد خُلقت من أجل هؤلاء، فأدور في رحى لأجلهم، وأكون كالترس الصغير يؤدي دورًا فقط، وأصبح كومبارس في قصة أحدهم؟ أم أن كل هؤلاء قد خُلقوا من أجلي أنا، وأنهم هم من يدورون حولي كدوران الأفلاك حول النجم الكبير؟

أين الحقيقة من كل ذلك؟

وفي خضم فوضى الأيام التي تتوالى علينا بصعابها وتحدياتها، من عمل وبيت وشارع عام، ووسط مخلفات ما توارثناه من جيل إلى جيل، أصبح من الصعب علينا إدراك حقيقتنا تلك أو معرفة رسالتنا على هذه الأرض. فأصبح كل منا يعيث ويسرح بعيدًا بحثًا عن كل الطرق التي ستمكنه من الحفاظ على الماديات التي يحصل عليها.

وأنا كذلك... مثلي مثل الجميع، أجاهد من أجل إرضاء الآخرين. فمن هم هؤلاء؟

يجب عليَّ الحفاظ على سمعة اسمي وعائلتي. فمن أكون؟

فصحيح أن كل واحد هو نتيجة لمجموعة من التفاعلات الفردية المجتمعية، لكننا علينا أن ندرك أن كل هذه الأمور

سطحية جدًا، وأن حقيقتنا تكمن في أمور أخرى تسكن جوهر كل واحد فينا، وتسكن بداخله، وربما هو نفسه لا يراها.

أكدت ذلك كله الست "أم كلثوم" وهي تردد قولها:

"اتغيرت شوية شوية

اتغيرت ومش بإيديا

وبديت أطوي حنيني إليك

وأكره ضعفي وصبري عليك".

نعم، لقد تغيرت كثيرًا عما كنت عليه سابقًا. ولقد كان هذا التغيير يتم بشكل تدريجي نتيجة التجارب والمواقف والظروف التي مررت بها في خلوتي الأولى. ولكنني، وبرغم كل ما عرفته وتعلمته وقابلته، ما زلت لا أدرك كنه نفسي، وما زال السؤال حائرًا لا يجد له إجابة ترضيه: من أنا؟ ومن أكون؟

فحاولت أن أجري حوارًا مع نفسي، وأخبرها بأنني أشفق عليها مما تعانيه، ولكنها أجابتني بقسوة شديدة:

"إن لا أحد يعلم ما بي، ولا ما أعانيه، فوفر شفقتك، إنها لا تلزمني ما دمت لا تعرفني".

وهذه حقيقة. إنني بالفعل لا أعرف إلى الآن من تكون تلك النفس القابعة بداخلي. فعندما كنت أحاول أن أتقرب من شخص ما، أفكر ألف مرة في تلك الأشياء التي قد تساعدني على التقرب منه، وأحاول جاهدًا أن أفعل ما يبقيني على صلة به، وكان هذا شيئًا سهلًا للغاية.

أما حينما حاولت التقرب من نفسي، كان ذلك من أصعب ما لقيت وما واجهت.

يقول العلماء والأطباء النفسيون:

"إن هذه المرحلة من عدم معرفة النفس تعني أن لك نفسًا شفافة نقية تعجز عن مقاومة الزيف الذي يحيطها، وأنها تعجز أن تتنفس وتخرج ما بداخلها لتعلمه أنت، وتحاول تحقيقه".

فإنه قد يوجد تنفس صناعي وتوجد ابتسامة مصطنعة، لكنك لن تجد مطلقًا إحساسًا مصطنعًا من هؤلاء الأنقياء.

ودائمًا كانت النصيحة لكل من حاول معرفة نفسه وما بها ومن هي: ابتعد واهرب، واترك نفسك فيما هي فيه. فالله وحده يعلم ما بها، ولن تنفعها أنت مطلقًا.

فهل أعمل أنا بتلك النصيحة وأبتعد وأترك نفسي ها هنا؟

النهاية

عدت إلى أرض الواقع وهبطت من سحابة أفكاري الضبابية إلى صوت الست "أم كلثوم"، وكأنها نصيحتها هي أيضًا بما يجب عليّ فعله بكلمات مبهمة:

واخترت أبعد... وعرفت أعند...

حتى الهجر قدرت عليه...

وأنت يا عيني يا عيني...

لو في مكاني يا عيني يا عيني...

كنت تعمل غير كده إيه؟... اسأل روحك.

ابتسمت أنا ونفسي وكأننا اتفقنا، وأدركت أنّني قد قاربت على إقرار ما يجب فعله، ألا وهو أن أبتعد وأهرب وأترك نفسي في خلوتها الأبدية. ولربما نجتمع سويًا في يوم ما، وكأن هذا هو ما طلبته مني نفسي بقول:

لو في مكاني... كنت تعمل غير كده إيه؟

أغلقت المذياع وتوجهت إلى سريري ونمت. وفي منامي، وجدتهم جميعًا وكأنهم يتأهبون لوداعي، وبينهم هالة شفافة أعرفها جيدًا وأشعر بها دائمًا. فقمت بتوديعهم وتركت نفسي الشفافة تتوسطهم ورحلت في اتجاه معاكس.

في صباحي الجديد عزمت الأمر الأخير الذي لا رجعة فيه. تركت نفسي في هذه الغرفة وتركت لها كل ما يمكنها أن تحتاجه، وعزمت أن أعود أنا إلى حياتي التي كنت عليها، ولكن بشكل مختلف. فها أنا قد تعلمت وعلمت وفرحت وحزنت وأحببت وتزوجت وأنجبت.

بدأت ألملم أوراقي وأشيائي من الغرفة الصغيرة، تلك الغرفة التي كانت بمثابة البوابة لعالم النفس الداخلي، ذلك المعلم الكبير.

تركت بعض الأشياء كما هي بالغرفة: التلفاز، المذياع، السبرتاية، الكنكة والأقداح، كما تركت السرير بعدما نظفته ورتبته جيدًا. وتركت ذلك المقعد كما هو أمام الشرفة. وأعتقد أنّه سوف يكون الملاذ الليلي لنفسي حينما تشتهي السهر.

توقفت أمام الباب أنظر نظرة أخيرة، فتنهدت بقوة وودعتهم جميعًا، وأغلقت هذا الباب للأبد.

وها أنا ذا أعود لبيتي وأسرتي، زوجتي وبناتي وأحفادي. أحبهم ويحبونني. أحنو عليهم ويراعونني. ألهو معهم ونفرح سويًا. إنها أيام لا يعلم مقدارها إلا الله - عز وجل -.

فلِمَ لا أقضيها مع زوجتي التي أحببت واخترت؟ ولِمَ لا أحتضن ابنتيَّ الحبيبتين إلى قلبي؟ ولِمَ لا أحمل أحفادي فوق أكتافي، وأقصّ عليهم القصص وأغدق عليهم السعادة والمرح؟

وبعد عناء يوم طويل، أجلس مع زوجتي في شرفة منزلنا. نحتسي قهوتنا ونستمع إلى كوكب الشرق، الست "أم كلثوم". نسترجع ماضينا الجميل ونردد معها كلمات الشاعر مرسي جميل عزيز:

الليل وسماه... ونجومه وقمره...

وقمره وسهره... وأنت وأنا...

يا حبيبي أنا... يا حياتي أنا...

كلنا كلنا في الحب سوى...

والهوى آه منه الهوى...

سهران الهوى... يسقينا الهنا... ويقول بالهنا...

يا حبيبي... يلا نعيش في عيون الليل...

ونقول للشمس... تعالي تعالي...

بعد سنة مش قبل سنة...

دي ليلة حب حلوة... بألف ليلة وليلة...

بكل العمر... هو العمر إيه غير ليلة... زي الليلة زي الليلة؟

الخاتمة

وأخيرًا... إنه لا بدّ لكلٍ منا بخلوة وعزلة وانطوائية. فأكثر ما تتعلمه في الخلوة والانطواء هذا هو حرية الاختيار.

ولا أقصد هنا بـ"حرية الاختيار" كفكرة تقتنع بها وتتبناها، ولكن كحالة داخل نفسك اختبرتها بنفسك، ومررت بتجاربها بنفسك. "فمن ذاق عرف".

ومن خلال معرفتك تلك، ستقوم بترتيب أوراقك وأفكارك، ومحاسبة نفسك، والعدول عن تلك الحماقات التي كنت ترتكبها، والاستمرار في الأمور التي كان لك فيها النجاحات التي تفتخر بها وترتفع وتعلو وتسمو من خلالها.

ولكن مهما خلوت وانعزلت وانطويت بنفسك عن الآخرين، فاعلم أنه لا بدّ لك من أن تعود. تعود لتمارس حياتك الطبيعية بما تعلمت من خلوتك تلك.

ولا تعتبر ما أقوله دعوة للعزلة والانطواء قدر ما تعتبره فترة تقف فيها مع نفسك، وتحاسبها، وتقومها، وتعيدها إلى المسار الصحيح.

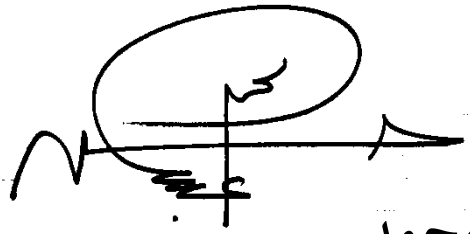

المؤلف / حسن محمد

المحتويات

إهداء ٥
المقدمة ٧
الوحدة ٩
الشك ١٦
رسائل ٢٤
بطل الظل ٣٢
الشيء وضده ٤٢
كانت، وأصبحت ٤٩
فات الميعاد ٥٢
الوسيلة ٥٦
الليلة الكبيرة ٦١
مولانا ٦٦
غياث الخلق ٧٢
من يكون؟ ٧٧
الذنب ٨٣

الدرويش وأنا ٨٨
شتاء القلوب ٩٤
عزة النفس ٩٨
المعرفة ١٠٢
هل تستطيع؟ ١٠٧
الصدمة ١١١
الاختيار ١١٦
الحلم والحقيقة ١٢١
من أنا؟ ١٣٠
النهاية ١٣٥
الخاتمة ١٣٩